أسئلة يوم القيامة

تأليف

محمد شومان الرملي

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ

أسئلة
يوم القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فإن يوم القيامة حَقٌّ آتٍ لا محالة، وإن جَمْعَ الناس لميقاته هَيِّنٌ على الله يسير، كما قال سبحانه:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وقال: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤٤].

وقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل: ٧٧].

وأمر سبحانه رسولَه ﷺ أن يقسم على ذلك، وهو في ثلاثة مواضع من كتابه الكريم.

الأول: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

الثاني: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ

ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣].

والثالث: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

وقال سبحانه وتعالى على لسان الراسخين في العلم:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وذكر سبحانه أن ذلك اليوم مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا يُنقص منه، فقال جل جلاله:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ [النبأ: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٤].

وأضاف عز وجل مُلك ذلك اليوم إليه، وجعل الحساب فيه عليه، فقال تبارك اسمه:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ أي: يوم الحساب والمجازاة بالأعمال.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

وأقسم سبحانه بنفسه الكريمة، وربوبيته العظيمة، على مساءلة العباد وتقريرهم

بأعمالهم وإقامة عدله فيهم ـ نسأله سبحانه النجاة برحمته ـ فقال عز وجل:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ * وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦-٩].

وأكّد ذلك نبيُّه الكريم عليه الصلاة والسلام فقال: «وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ».

وقال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وهذا كتاب جمعتُ فيه عامةَ ما وقفت عليه من أسئلة يوم القيامة، من كتاب الله عز وجل، وحديث النبي ﷺ، وهو جهد المُقِلّ، فإن الاستيعاب عزيز.

وقد قدمت قبل ذكر أسئلة الآخرة فصولًا مهمة، هي كالمقدمة لها والمدخل إليها، لذا جاء الكتاب مرتبًا بعد هذه المقدمة كما يلي:

الباب الأول: في اقتراب الحساب للناس ومجيء الآخرة.

الباب الثاني: في أن كل شيء محصًى على العباد مكتوب.

الباب الثالث: في السؤال عند الموت.

الباب الرابع: في السؤال في القبر.

الباب الخامس: في أسئلة يوم القيامة.

وختمت الكتاب بفصل في وجوب الاستعداد للآخرة قبل فوات فرصة

الإمكان، وذهاب مهلة الزمان، وهو **الباب السادس**.

واللهَ عز وجل أسأل، أن يجعلنا وإخواننا المؤمنين من الذين أعَدُّوا للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، وأن يهوِّن علينا يومًا عبوسًا قمطريرًا، وأن يلقننا حجتنا، ويثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يجعلنا ممن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة، وفاز بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وكتب: محمد شومان

١٢/محرم/١٤٢٤هـ

الباب الأول

في

اقتراب الحساب للناس

ومجيء الآخرة

اقتراب الحساب للناس
ومجيء الآخرة

قال الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم وأجسامهم ومطاعمهم ومشاربهم وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم ومسألته إياهم: ماذا عملوا فيها؟ وهل أطاعوه فيها فانتهَوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصَوه فخالفوا أمره فيها؟ ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾؛ يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دنوّ محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم، في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب، جهلًا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال.

قال ابن كثير: روى الحافظ ابن عساكر(١) في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية، حيث يقول:

النـــاس في غفـلاتهـم ورحـــــــا المنية تطحن

فقيل له: من أين أخذ هذا؟ قال: من قول الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٣/٤١٦).

﴿حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

قال: وروى[1] في ترجمة عامر بن ربيعة، من طريق موسى بن عبيد الآمدي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عامر بن ربيعة، أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ واديًا في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا؛ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ.

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ[2] فَلَا يَطْعَمُهُ.

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ[3] فَلَا يَسْقِي فِيهِ.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٣٢٧/٢٥). وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم متفق على ضعفه.

(٢) هي ذات الدَّرّ من النُّوق. «فتح».

(٣) أي: يطينه ويصلحه. «نهاية».

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»[1].

قلت: ومناسبة ذكر هذا الحديث هنا بعد الآية المتقدمة أن فيه تنبيهًا إلى أن الساعة تقوم بغتة والناس في غفلة الدنيا ومشاغلها؛ في بيعهم وشرائهم وأكلهم وشربهم وإصلاح معايشهم، فهل من مدّكر؟!

ثم وجدت الحافظ قد ذكر شيئًا من هذا في «الفتح».

وقال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

فصل

وقال الله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

قال ابن سعدي: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة والقلاقل المفظعة، وما كانوا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٥٧) مختصرًا، وغيرهما.

يعرفون من جناياتهم وذنوبهم، وأنهم يَدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات، ويقولون لـ: ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين وفي لهو الدنيا متمتعين حتى أتانا اليقين ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة لماتوا، ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار هم وما كانوا يعبدون. اهـ.

وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

قال ابن جرير: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة، وقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾؛ افتعلت، من القرب، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنوّ القيامة وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون.

وروى عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخَطَبَنا حذيفة فقال: ألا إن الله يقول: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشقّ، ألا وإن الدنيا قد آذَنَتْ بفراق، ألا وإن اليوم المِضْمار وغدًا السباق، فقلت لأبي: أتستبق الناس غدًا؟ فقال: يا بني إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال. ثم جاءت الجمعة الأخرى، فحضرنا، فخطب حذيفة فقال: ألا إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا

قد آذَنَتْ بفراق، ألا وإن اليوم المِضْمار وغدًا السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة[1].

وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرًا بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾، وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾. وقوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾؛ أي: قرب ما تباعد ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾. اهـ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦-٧].

يعني: أنهم يرون عذاب يوم القيامة الواقع عليهم بعيدًا ومستحيلًا ويراه الله عزّ وجلّ قريبًا، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما ليس يأتي، وإذا ما قورنت مدة الحياة الدنيا بالآخرة صارت الآخرة كغد.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ [النبأ: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٥١].

وقال تبارك اسمه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ

(١) وأخرجه الحاكم (٤/٦٠٩) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» برقم (٣٣٥٢).

لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٧-١٨].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ (أو كهاتين)»، وقَرَنَ بين السبابة والوسطى[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَلِيلًا[٢]، وَمَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْقَلِيلِ، وَمَثَلُ مَا بَقِيَ مِنْهَا كَالثَّغْبِ ـ يعني: الغَدِير ـ شُرِبَ صَفْوُهُ وَبَقِيَ كَدَرُهُ»[٣].

وقد استفاد ابن مسعود رضي الله عنه من كلمة النبي ﷺ هذه فقال مرة: والذي لا إله إلا هو ما أذكر ما غَبَرَ من الدنيا إلا كالثَّغْبِ شُرِبَ صَفْوُهُ وبَقِيَ كَدَرُه[٤].

قال الحافظ في «الفتح»: وإذا كان هذا في زمان ابن مسعود وقد مات هو قبل مقتل عثمان ووجود تلك الفتن العظيمة! فماذا يكون اعتقاده فيما جاء بعد ذلك؟! وهَلُمَّ جَرًّا.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٩٥٠)، وغيرهما.

(٢) وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

(٣) أخرجه الحاكم (٣٢٠/٤) وغيره، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٤/٤).

(٤) بعض أثر، أخرجه البخاري (٢٧٤٣).

وقال الشاعر:

إنما الدنيا وإن سَرْ رَت قليل من قليلِ
ليس يخلو أن تَبَدّى لـكَ في زِيٍّ جمـيلِ
ثم تَـرميك مـن المَــأ مَنِ بالخَطْب الجليلِ
إنما العيش جوار اللـ ــهِ في ظِـلٍّ ظليلِ
حيثُ لا تسمعُ ما يؤ ذيكَ مِنْ قالٍ وقيلِ

وقال غيره:

نَسِيرُ إلى الآجالِ في كُلِّ لحظةٍ وأعمارُنا تطوى وهن مراحلُ
تَرَحَّلْ من الدنيا بزادٍ من التُّقى فعُمْرُكَ أيامٌ وهُنَّ قلائلُ

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: مَرّ بي رسول الله ﷺ وأنا أُطَيِّن حائطًا لي أنا وأمّي، فقال: «مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللَّهِ؟» قلت: يا رسول الله، شيء أُصْلِحُه. فقال: «الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ»[(١)].

وقال ﷺ لأصحابه وهم يبنون مسجده: «عَرِيشًا كَعَرِيشِ مُوسَى، ثُمَامٌ[(٢)] وَخُشَيْبَاتٌ، وَالْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ»[(٣)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: خَسَفَتِ الشمسُ، فقام النبي ﷺ فَزِعًا يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد، فصلى بأطول قيام وركوع

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٣٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) مفردها: ثُمامة، وهو نبت ضعيف قصير يُسَد به خَصاصُ البيوت. «فيض القدير».

(٣) انظر: «الصحيحة» (رقم ٦١٦).

وسجود رأيته قط يفعله. الحديث[١].

وعن خالد بن عُمَيْرٍ العَدَوي قال: خطَبَنا عتبة بن غَزْوان[٢]، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن الدنيا قد آذَنَتْ بِصُرْمٍ[٣]، ووَلَّتْ حَذّاءَ[٤]، ولم يبقَ منها إلا صُبَابَةٌ كصُبَابة الإناء يَتصابُّها صاحبُها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذُكِرَ لنا:

«أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ». أفعجبتم؟! ولقد ذُكِرَ لنا:

«أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ[٥] مِنَ الزِّحَامِ» الأثر[٦].

فصل

فإن شَقّ على الغافل استيقان قرب الآخرة والعمل بمقتضى ذلك، فليعلم أن الموت قد يأتي بغتة ويقع فجأة، ولا يحتاج هذا إلى برهان أو دليل، فإن كل أحد يرى بعينيه ويسمع بأذنيه كيف أنه في كل يوم، بل وفي كل ساعة، يموت من الأطفال والشباب وغيرهم ما لا يحصى، خاصة في هذا الزمان

(١) أخرجه البخاري (٢/٥٤٥-فتح)، ومسلم (٩١٢)، وغيرهما.

(٢) صحابي من السابقين رضي الله عنه.

(٣) أي: أعلمت بانقطاع وذهاب.

(٤) أي: مسرعة الانقطاع.

(٥) أي: ممتلئ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٦٧) وغيره.

الذي كثرت فيه الفتن والحروب والكوارث وكثر فيه الهرج، فلا يكاد يمر يوم إلا ويموت فيه أعداد من البشر لا يعلم قدرها إلا الذي خلقها سبحانه.

وقد قال عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقد نبه النبي ﷺ على ذلك كثيرًا، ومن ذلك ما تقدم من قوله: «الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ»، «وَالْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ»، على ما ذكروه من أن معناه: الموت.

فصل

وإن طال أمل العبد وظنّ بُعْدَ الموت فليعلم أن لذاته ستنقطع إن عاجلًا أو آجلًا، وستبقى تبعة الشهوات المحرمة في عنقه، أما لذتها المنغصة المكدرة فقد زالت، ولم يبقَ منها شيء، فحَرِيٌّ بالعاقل أن لا يتعلق من الدنيا بشيء؛ لأن فراقها صعب على مُـحِبِّها، ولا بدَّ له منه.

قال ابن القيم في «فوائده»[1]: طول الأمل ينسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها.

وقال فيها[2]: لقاحُ أَخْذِ أُهْبَةِ الاستعداد للِّقاء قِصَرُ الأمل، فإذا اجتمعا فالخير كله في اجتماعهما، والشر في فرقتهما.

---

(١) ص ٩٩.

(٢) ص ٢٠٠.

وفي «المدهش»[1]: كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموت ساعة ولا يتم له سرور يوم؟! إذا كان عمرك في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى!

وفيه[2]: ويحك! إن سرورها أقتل من السم، وإن شرورها أكثر من النمل، إنها في قلبك أعز من النفس، وستصير عند الموت أهون من الأرض، حرصك بعد الشيب أحر من الجمر، أَبَقِيَ عمر؟ يا أبرد من الثلج! يا من هو عن نجاته أنوم من فهد! ضيعت عمرًا أنفس من الدر، أنت في الشر أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج.

وفي «لطائف المعارف»[3]: يا من يفرح بكثرة مرور السنين عليه، إنما تفرح بنقص عمرك.

قال أبو الدرداء والحسن رضي الله عنهما: إنما أنت أيـام، كلَّما مضى منك يوم مضى بعضك.

إنّا لنفرح بالأيام نَقْطَعُها ... وكُلُّ يومٍ مضى يُدني من الأجل

فاعْمل لنفسك قبلَ الموتِ مجتهدًا ... فإنما الربحُ والخسرانُ في العمل

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا مَنْ يومُه يهدم شهرَه، وشهرُه يهدم سَنتَه، وسنتُه تهدم عمرَه؟! كيف يفرح مَنْ يقوده عمرُه إلى أجله، وحياتُه إلى موته؟!

وقال الحسن: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

---

(١) ص ٣١٣.

(٢) ص ٢٦٠.

(٣) (ص ٣١٧) باختصار.

وفيه[1]: يا أبناء العشرين، كم مات من أقرانكم وتخلفتم؟! يا أبناء الثلاثين، أُصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم. يا أبناء الأربعين، ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم. يا أبناء الخمسين، تنصفتم المِائة وما أنصفتم. يا أبناء الستين، أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم، أتلهون وتلعبون؟! لقد أسرفتم.

ولابن القيم:

ولو تبصر الدنيا وراء ستورها ... رأيت خيالًا في منام سيُصْرَمُ
كحُلمٍ بطَيْفٍ زار في النوم وانقضى الْـ ... ـمنامُ وراح الطيف والصَّبُّ مُغرمُ
وظِلٍّ أرته الشمسُ عند طلوعها ... سَيَقلِصُ في وقت الزوال ويُفصَمُ
ومُزْنَةِ صيفٍ طاب منها مَقيلها ... فولّت سريعًا والحَرورُ تَضَرَّمُ
ومَطعمِ ضيف لذّ منه مَساغُهُ ... وبعد قليل حاله تلك تُعلَمُ
كذا هذه الدنيا كأحلام نائم ... ومِن بعدها دار القضاء سَتَقدَمُ
فجُزها ممرًّا لا مقرًّا وكن بها ... غريبًا تعش فيها حميدًا وتسلَمُ
أو ابن سبيلٍ قال في ظلِّ دوحةٍ ... وراح وخلّى ظلَّها يَتقسَّمُ
أخا سفرٍ لا يستقرُّ قراره ... إلى أن يرى أوطانَه ويُسَلِّمُ
فيا عجبًا كم مصرع وعظت به ... بنيها ولكن عن مصارعها عَمُوا
سقتهم كؤوس الحب حتى إذا نَشَوْا ... سقتهم كؤوس السُّمِّ والقوم نُوَّمُ

---

(١) (ص ٣١٦).

وأعجب ما في العبد رؤية هذه الـ ـعظائم والمغرور فيها مُتَيَّمُ
ومـــا ذاك إلا أنَّ خمرة حُبِّها لَتَسْلِبُ عقل المرء منه وَتَصْلِمُ
وأعجَبُ من ذا أنَّ أحبـابها الأُلى تـُهـينُ وللأعدا تُراعي وتُكـرِمُ
وذلك برهانٌ علـى أنّ قدرها جناح بعوض أو أدَقُّ وألأمُ
وحسبك ما قال الرسول مُـمثِّلًا لهـا ولدار الخلد والحَقُّ يُفهَمُ
كما يُدلِيَ الإنسان في اليَمِّ أصبعًا ويَنزِعُها منه فما ذاك يَغنَـمُ
ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليـلة على حذر منها وأمري مبرَمُ

ولأبي العتاهية:

أيها الباني قصورًا طـوالًا أين تبغي هل تريد السَّحابا
إنمـا أنت بـواد المنـايا إن رماك الموت فيه أصابا
أيهـا البـاني لهـدم اللـيالي ابن ما شئت ستلقى خرابا
أأمنت الموتَ والموتُ يأبى بك والأيام إلا انقلابا
لو ترى الدنيا بِعَيْنَيْ بصيرٍ إنمـا الدنـيا تـحاكي السـرابا
إنمـــا الدنـيا كَفَيءٍ تولّى أو كما عاينت فيه الضبابا
نارُ هذا الموت في الناس طُرًّا كـلّ يـوم نزيده التهابا
إنما الدنيا بلاءٌ وكدٌّ واكتئاب قد يسوق اكتئابا
ما استطاب العيشَ فيها حكيمٌ لا ولا دام لـه مـا استطابا

أيُّهـا المـرء الـذي قـد أبـى أن | يهجـر اللهو بهـا والشبابا
وبنـــى فيـهـــا قـصـــورًا ودورًا | وبنـى بعـد القباب القبابا
ورأى كــل قبيــح جميـــلًا | وأبـى للغَـيِّ إلا ارتكابا
أنت في دار ترى الموت فيها | مستشيطًا قـــد أذلّ الرِّقـابا
أبت الدنيا على كـل حيٍّ | آخر الأيام إلا ذهابا
إنّما تَنْفي الحيـاةَ المنـايـا | مثلما ينفي المشيبُ الشَّبابا
ما أرى الدنيا على كلّ حيٍّ | نالها إلا أذًى وعذابا
بينما الإنسان حيٌّ قويٌّ | إذ دعاه يومـه فأجابـا
غير أنّ الموت شيءٌ جليلٌ | يترك الـدور يبابًـا خرابا
أيّ عيش دام فيهـا لِـحَيٍّ | أيّ حيّ مات فيها فآبا
أيّ مُلك كان فيها لقومٍ | قبـلنا لم يُسلَبوه استلابا
إنّما داعي المنايا ينـادي | احملوا الزاد وشُدّوا الرِّكابا
جعـــل الرحمن بين المنايا | أنفس الخلق جميعًا نِـهابا
ليت شعري ألِساني يقوى | يومَ عرضي أن يَرُدَّ الجوابا
ليت شـعري بيميني أُعطى | أم شمالي عند ذاك الكتابا

❑❑❑❑❑

فصل
في مواعظ مختارة

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾

يا أسفا للعصاة في مآبها! إذا قَلِقَتْ لقطع أسبابها، وغابت في الأسى عند حضور عتابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

قامت الأمم على أقدامها، فأقامت تبكي على إقدامها، وسالت عيونٌ من عيون غرامها، ندمًا على آثامها في أيامها واحتقابها[١]، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

ظهرت أهوالٌ لا توصف، وبدت أُمور لا تُعْرف، وكُشِفَتْ حالات لم تكن تُكْشَف، إنْ لم تنتبه لهذا فأنت أعْرَف، ستعرف من يلوم نفسه عند عذابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

قِيدَتْ جهنم فبدتْ بأَزِمَّتِها، فبكت النفوس على دناءة هِمّتها، كم من ديون تعلقت بذمتها! على أنه يكفيها ما بها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

أنت تدري ما في كتابك، وستبكي والله عند عتابك، وستعلم حالك يوم حسابك، إذا كَلَّتْ كلُّ الألسن عن جوابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

يا له يوم لا كالأيام، يتيقظ فيه مَنْ غَفَلَ ونام، ويحزن كل مَنْ فَرِحَ في

---

(١) أي: احتقابها الآثام، احتقب الشيء: ادّخره. واحتقب الإثم: كأنه جمعه واحتقبه من خلفه؛ أي: جعله وراءه حقيبة، كما يجعل الزاد على الراحلة.

الآثام، وتيقنْ أنّ أحلى ما كنت فيه أحلام، وا عجبا لِضَحِكِ نَفْسِ البكاءُ أولى بها! ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

كم من نفسٍ تُرَى بعين الصلاح، تفعل الخير في المساء والصباح، عملت أعمالًا ترجو بها الفلاح، فلاح لها ما لم يكن في حسابها! ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾[1].

أنت محاسب على ما ضيعت

ويحك! أنت محاسب على ما ضَيّعْت، مسؤول عن كل ما جَمَعْت، مناقَشٌ على كل ما فعلت، ألا تتصور بقلبك عتابك على ذنبك؟! ألا تَتَمَثّل بلُبِّكَ شهادة أعضائك وكُتُبك؟! مَنْ لك إذا جُوزِيتَ على كَسْبِك؟! فقل لي: ماذا تقول لربك؟!

يا نازلين منازل الهالكين، يا مقيمين في مقام الراحلين، أين مَنْ فعل فعلكم؟ قِيدوا إلى البِلى فانقادوا، وبادوا في الثَّرى وما عادوا، ما رَدَّ عنهم ما بَنَوْا وما شادوا، ولقد فاتهم يوم الرحيل ما أرادوا.

لو تفكرت النفوس فيما بين يديها

لو تفكرتِ النفوسُ فيما بين يديها، وتذكرت حسابها فيما لها وعليها، لبعَثَ حزنُها بَريدَ دَمْعها كلَّ وقت إليها، أما يحق البكاء لمن قد مضى زمانه؟! أما يحق البكاء لمن قد ذهب أوانه؟! أما يحق البكاء لمن طال عصيانه؟! نهاره في المعاصي فقد زاد خسرانه، وليله في الخطايا فقد خَفّ ميزانه، وبين يديه

(١) «التبصرة» (٢/١٨٥).

الموت الشديد لقاؤه وعِيانه، والقبر المظلم المنهدمة أركانه، والحشر العنيف فيه ذله وهوانه، والحساب اليسير يُنشر فيه ديوانه، والموقف الطويل فيه غمومه وأحزانه، والجحيم الشديد فيه من العذاب ألوانه.

أنوح على نفسي وأبكي خطيئةً ... تقود خطايا أثقلت مِنِّيَ الظَّهْرا
فيا لَـذَّةً كانت قليلًا بقاؤها ... ويا حسرةً دامت ولم تُبْقِ لي عُذْرا

ذِكْر العَرْض أجرى دموعَ الخائفين، وهولُ الحساب قَلْقلَ أفئدة التائبين[1].

أيتها النفس

أيتها النفس، أقلعي عن الجناح[2] وتوبي، وارجعي إلى الصلاح وأُوبي، أيتها النفس، قد شان شاني عيوبي، أيتها الجاهلة، تكفيني ذنوبي.

يا ويح نفسي من تتابع حَوْبتي ... لو قد دعاني للحساب حسيبي
فاستيقظي يا نفس ويحكِ ... واحذري حذرًا يُـهَيج عَبْرتي ونحيبي
واستدركي ما فات منك وسابقي ... سطواتِ موتٍ للنفوس طَلُوبِ
وابكي بكاء المستغيث وأعْوِلي ... إعوال عانٍ في الوِثاقِ غريبِ
هذا الشباب قد اعتللتِ بلهوِهِ ... أفليس ذا يا نفس حينَ مشيبي
هذا النهار يَكُرّ ويحك دائبًا ... يجري بصَرْف حوادث وخطوبِ
هذا رقيب ليس عني غافلًا ... يُحصي عليَّ ولو غَفَلْتُ ذنوبي

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٧٧).

(٢) أي: الإثم.

أوَلـــيس مِــــنْ جَهْــلٍ بــأني نــائمٌ   نــومَ السَّــفيه ومــا ينــام رقيبــي

آهٍ لنفس تركت يقينها وتبعت آمالها! ما لها جهلت ما عليها وما لها؟ أما ضَرَبتِ العِبَرُ بأخذ أمثالِها أمثالَها؟ من لها إذا نازلها الموت فغالها، وأخذ منها ما نالها وقد أنى[1] لها؟! ليتها تفقدت أمورها أو شهدت أحوالها، تحضر المجلس بنية فإذا قامت بدا لها، ويحها! لو ترى أجزاءً من ما لَـها لَهَالَها[2][3].

❑❑❑❑❑

(١) أي: حان.

(٢) أي: لأفظعها.

(٣) «المدهش» (ص ١٧٨).

الباب الثاني

في

أن كل شيء

محصى على العباد مكتوب

كل شيء
محصًى على العباد مكتوب

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥١-٥٣].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره لمشركي قريش الذين كذبوا رسوله محمدًا ﷺ: ولقد أهلكنا أشياعكم معشر قريش من الأمم السالفة والقرون الخالية على مثل الذي أنتم عليه من الكفر بالله وتكذيب رسله. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ يقول: فهل من مُتَّعظ بذلك منزجر ينزجر به.

قال: وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾؛ يقول تعالى ذكره: وكل شيء فعله أشياعكم الذين مضَوْا قبلكم معشرَ كفار قريش في الزبر؛ يعني: في الكتب التي كتبتها الحفظة عليهم.

قال: وقد يحتمل أن يكون مرادًا به: في أمِّ الكتاب. اهـ.

قال الشنقيطي: الصحيح في معنى الآية: أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر، التي هي صحف الأعمال، وكل صغير وكبير مستطر؛ أي: مكتوب عليهم لا يُترك منه شيء. وهذا المعنى جاء موضحًا في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا

﴿يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب، والمستطر معناه: المسطور؛ أي: المكتوب. اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩].

قال ابن كثير: أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. اهـ.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢].

قال ابن سعدي: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال، ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾؛ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾؛ وهي آثار الخير وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب يُنتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيرًا من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجدًا أو محلًّا من المحال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

وهذا الموضع يبين لك عُلُوَّ مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدهم جرمًا وأعظمهم إثمًا.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾؛ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: كتاب هو أم الكتب، وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ. اهـ.

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨ -٢٩].

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إن الله خلق النون وهي الدواة، وخلق القلم، فقال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول، وبرٍّ أو فجور، أو رزق مقسوم، حلال أو حرام. ثم ألزمَ كل شيء من ذلك شأنه، دخوله في الدنيا، ومقامه فيها كم، وخروجه منها كيف، ثم جعل على العباد حفظة، وعلى الكتاب خزانًا، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم، فإذا فني الرزق وانقطع الأثر وانقضى

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم وغيره.

الأجل أتت الحفظةُ الخزنةَ يطلبون عمل ذلك اليوم، فتقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئًا، فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا. قال: فقال ابن عباس: ألستم قومًا عَرَبًا تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل. اهـ.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٣-١٥].

قال ابن جرير: الصواب من القول في ذلك عندنا: أن ذلك خبر من الله أن الإنسان ينبأ بكل ما قدم أمامه من عمل من خير أو شر في حياته، وأخّر بعده من سنة حسنة أو سيئة مما قدم وأخّر، وكذلك ما قدم من عمل عمله من خير أو شر، وأخّر بعده من عمل كان عليه فضيَّعه فلم يعمله مما قدّم وأخّر، ولم يخصص الله من ذلك بعضًا دون بعض، فكل ذلك مما ينبأ به الإنسان يوم القيامة.

قال: وقوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾؛ يقول تعالى ذكره: بل للإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه بعمله، ويشهدون عليه به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾؛ ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى أقوالًا في

معنى ذلك، ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معناه: ولو اعتذر، لأن ذلك أشبه المعاني بظاهر التنزيل، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن الإنسان أن عليه شاهدًا من نفسه بقوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، فكان الذي هو أولى أن يتبع ذلك: ولو جادل عنها بالباطل، واعتذر بغير الحق. فشهادة نفسه عليه به أحق وأولى من اعتذاره بالباطل. اهـ

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ -٨].

وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩-١٠].

قال ابن جرير: وعنى بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ يوم تُـخْتَبَرُ سرائر العباد، فيظهر منها يومئذ ما كان في الدنيا مستخفيًا عن أعين العباد، من الفرائض التي كان الله ألزمه إياها وكَلَّفه العمل بها.

وروى عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، قال: ذلك الصوم والصلاة وغسل الجنابة، وهو السرائر، ولو شاء أن يقول: قد صمت وليس بصائم، وقد صليت ولم يُصَلِّ، وقد اغتسلت ولم يغتسل.

وروى عن قتادة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ إن هذه السرائر مُـخْتَبَرَة، فأسِرُّوا خيرًا وأعلنوه إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ

مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٩ -٣٠].

قال ابن كثير: يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات وجميع ما في الأرض والسموات، لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: وقدرته نافذة في جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر مَنْ أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية؛ يعني: يوم القيامة يُحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، فما رأى من أعماله حسنًا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغصه، وودّ لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمدٌ بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقرونًا به في الدنيا وهو الذي جرّأه على فعل السوء: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ثم قال تعالى مؤكدًا ومهددًا ومتوعدًا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي:

يخوفكم عقابه. ثم قال جل جلاله مرجيًا لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾. قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم. انتهى كلام ابن كثير.

وروى ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾، قال: يسر أحدُهم أن لا يلقى عملَه ذاك أبدًا، يكون ذلك مناه، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

قال ابن كثير: يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال

تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦] ، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟! كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]. اهـ.

وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ إلخ: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يا محمد عملُ خلقه ولا يذهب عليه علم شيء حيث كان من أرض أو سماء، وأصله من عزوب الرجل عن أهله في ماشيته، وذلك غيبته عنهم فيها.

قال: وقوله: ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾؛ يعني: من زِنَةِ نملة صغيرة، يُحكى عن العرب: خذ هذا فإنه أخف مثقالًا من ذاك؛ أي: أخف وزنًا.

قال: وذلك خبر عن أنه لا يخفى عليه جل جلاله أصغر الأشياء وإن خَفّ في الوزن كل الخفة ومقادير ذلك ومبلغه، ولا أكبرها وإن عظم وثقل وزنه، وكم مبلغ ذلك.

قال: يقول تعالى ذكره لخلقه: فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم عنكم فإنا شهود لأعمالكم، لا يخفى علينا شيء منها، ونحن

(١) متفق عليه.

محصُوها ومجازوكم بها. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

قال ابن كثير: يقول تعالى بعد ذكر الزمان وما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، وطائره هو ما طار عنه من عمله ـ كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ من خير وشر ويلزمه به ويجازى عليه، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦، والتحريم: ٧]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلًا ونهارًا صباحًا ومساءً.

قال: وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾؛ أي: نجمع له عمله كله في كتاب يُعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيدًا أو بشماله إن كان شقيًّا. ﴿مَنشُورًا﴾؛ أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره

إلى آخره، ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٣-١٥]. اهـ.

وقال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وكل إنسان ألزمناه ما قُضِيَ له أنه عامله وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه، وإنما قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ مَثَلٌ لِـما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها، فأعلمهم جَلّ ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربُّه طائره في عنقه نحسًا كان ذلك الذي ألزمه من الطائر وشقاءً يورده سعيرًا أو كان سعدًا يورده جنات النعيم.

قال: فإن قال قائل: وكيف قال: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ إن كان الأمر على ما وصفت، ولم يقل: ألزمناه في يديه ورجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة بني آدم وغيرهم من ذلك إلى أعناقهم، وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جرّ عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾. اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال ابن كثير: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والفتيل والقطمير والصغير والكبير، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾؛ أي: يا حسرتنا وويلتنا على ما فرطنا في أعمارنا، ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾؛ أي: لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عملًا وإن صغر ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾؛ أي: ضبطها وحفظها.

وقال ابن جرير: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، يقول عز ذكره: فترى المجرمين المشركين بالله ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ يقول: خائفين وجلين مما فيه مكتوب من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يؤاخذوا بها، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾؛ يعني: أنهم يقولون إذا قرؤوا كتابهم ورأوا ما قد كُتب عليهم فيه من صغائر ذنوبهم وكبائرها: [﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾]؛ نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها. اهـ

وقال الله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١-١٤].

قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾؛ قال الضحاك: أُعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله. وقال قتادة: يا بن آدم، تملي فيها ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾؛ قال: هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأُحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

قال: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة، حدثنا ابن المبارك، حدثنا محمد بن مُطَرِّفٍ، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ قال عمر لما بلغ: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ قال: لهذا أجرى الحديث. اهـ.

وفي الباب في هذا المعنى آيات كثيرة، وفيما ذُكر كفاية ـ إن شاء الله تعالى ـ في تنبيه اللبيب وتذكير المنيب، أما الأحاديث فستأتي ضمن الكلام على أسئلة يوم القيامة في الباب التالي.

□□□□□

فصل
في مواعظ مختارة

يا مجتنبًا من الهدى طريقًا واضحًا

يا مجتنبًا من الهدى طريقًا واضحًا! افتح عين الفكر تَرَ العَلَمَ لائحًا، احذر بئر الغفلة فكم غال سائحًا، وتَوَقَّ بحر الجهل فكم أغرق سابحًا.

يا غـاديًا في غفـلةٍ ورائحًـا إلى متى تستحسنُ القبائحا
وكـم إلى كـم لا تخـافُ موقفًـا يستنطق اللـهُ به الجوارحا
يا عجبًا منك وأنت مبصرٌ كيف تجنبتَ الطريقَ الواضحا
كيف تكون حين تقرأُ في غـدٍ صحيفةً قد حَوَتِ الفضائحا
وكيف ترضى أنْ تكون خاسرًا يومَ يفوزُ مَنْ يكون رابحًا

يا معدومًا في الأمس، فانيًا في الغد، عاجزًا في الحال! مَنْ أنت حتى تغتر بسلامتك وتنسى حتفك؟! وأملك بين يديك، وأجلك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك. كم نُهيتَ عن أمر، فما كَفَّكَ النهيُ أن تبسط كَفّك؟! يا مَنْ قد طال زَلَلُه وتعثره! تفكر في عمر قد مضى كثيره، يا قلبًا مشتتًا قَلَّ نظيره! كم هذا الهوى؟ ولكم هوى أسيره؟! أيها القاعد عن أعالي المعالي! سبق الأبطال والبطّال ما يبالي[1].

---

(١) «المدهش» (ص ٣١٥).

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾

يا من بين يديه يومٌ لا شك فيه ولا مِرَا، يقع فيه الفِراق وتَنْفَصِم العُرَى، تدبَّر أمرك قبل أن تحْضُرَ فتَرى، وانظر لنفسك نَظَرَ مَنْ قد فَهِمَ ما جرى، قبل أن يغضب الحاكمُ والحاكمُ ربُّ الورى، ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

يومٌ تشيب فيه الأطفال، يوم تسير فيه الجبال، يوم يظهر فيه الوبال، يوم تنطق فيه الأعضاء بالخصال، يوم لا تُقال فيه الأعثار، وكم من أعذار تقال، فترى مَنْ قد افترى، يقدّم قدمًا ويؤخر أخرى، ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾.

فيُنصب الصراط فناجٍ وواقع، ويوضع الميزان فتكثر الفظائع، وتُنْشَر الكتب وتَسيل المدامع، وتظهر القبائح بين تلك المَجَامع، ويؤلم العقابُ وتُملى المسامع، ويخسر العاصي ويربح الطائع، فكم غنيٍّ قد عاد من الخير مفتقرًا، ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾[1].

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾

ويح العصاة لقد عَجِلوا! لو تأمَّلوا العواقب ما فعلوا، أين ما شربوا؟! أين ما أكلوا؟! بماذا يجيبون إذا أُحْضِروا وسُئِلوا؟! ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [النور: ٦٤، والمجادلة: ٦].

---

(١) «التبصرة» (١/٧١-٧٢).

آهٍ لهم في أي حَزْن[1] من الحُزْن نَزَلوا، لقد جَدَّ بهم الوعظ غير أنهم هَزَلوا، ما نفعهم ما اقتنَوْا من الدنيا وعَزَلوا، إنما كانت ولاية الحياة يسيرًا ثم عُزِلوا، وانفردوا في زاوية الأسى واعتزلوا، فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذُهِلوا، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

ما نفعتهم لَذّاتهم إذ خرجت ذواتُـهم، لقد جُـمِعت زلاتهم فَحَوَتْها مكتوباتُـهم، فلما عاينوا أفعالَـهم خَجِلوا، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

ذهبت من أفواههم الحلاوة، وبقيت آثارُ الشقاوة، وحُطُّوا إلى الحضيض من أعلى رُباوة[2]، وحَـمَلوا عِدْلَـي الموتِ والفوتِ والحسرةُ عِلاوة[3]، فأعجزهم ما حَـمَلوا، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾[4].

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾

اجتمعت كَلِمَةٌ إلى نَظْرة، إلى خاطرٍ قبيحٍ وفِكْرةٍ، في كتاب يُحْصي حتى الذَّرَّة، والعصاة عن المعاصي في سكرة، فجَنَوْا مِنْ جَنَى ما جَنَوْا[5] ثمار ما غرسوه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وكم تنعَّم بمال المظلوم الظالم، وبات لا يُبالي بالمَظالم، والمسلوبُ يَبْكي ويُبكي الحمائم، وما كفاهم أخذُ مالِه حتى حبسوه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

---

(١) الحَزْن: الخشن الغليظ الصعب.

(٢) الرُّباوة: الرابية، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٣) العِدل هنا: نصف الحِمْل يكون على أحد جَنْبَي البعير، فالمعنى: أن العِدْلَين اللذين حملوهما: الموت وآلامه، وفوات الدنيا وشهواتهم فيها، وفوق هذا وعِلاوة عليه الحسرة والندامة.

(٤) «التبصرة» (١/٣٥٠).

(٥) جنوا: الأولى من جني الثمار، والثانية من جني الآثام.

أين ما كانوا جمعوه؟! كم لِيمُوا وما سمعوه! كم قيل لهم لو قَبِلوه! ذهب العَرَضُ[1] غير أن العِرْض دنّسوه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

كم كاسبٍ للمال من حرامه وحلاله، كان يحاسب شريكه على عُود خِلاله[2]، ولا يُنْفِق شيئًا منه في تقويم خِلاله[3]، فلما وقع صريعًا بين أشباله، اشتغلوا عنه بانتهاب ماله، ثم في اللَّحد نكَّسوه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[4].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

يا كثيرَ الكلام حسابك شديد، يا عظيم الإجرام عذابك جديد، يا مؤثرًا ما يضرّه ما رأيك سديد، يا ناطقًا بما لا يجدي ولا يُفيد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

كلامك مكتوب، وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمسُ الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب! وقد أتاه ما يصدع الحديد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

أَتَظُنُّ أنك متروك مهمل؟! أم تحسب أنه يُنْسى ما تَعْمل؟! أو تعتقد أن الكاتب يغفل! هذا صائح النصائح قد أقبل، يا قاتلًا نفسه بكفِّه لا تفعل، يا مَنْ أَجَلُه ينقص وأَمَلُه يزيد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

---

(١) أي: متاع الدنيا.

(٢) أي: العود الذي يُتَخَلَّل به؛ أي: يُخْرج به ما بين الأسنان من الطعام.

(٣) جمع خَلَّة، وهي الخَصْلة.

(٤) «التبصرة» (١/٣٥١).

أنـــا مِـــنْ خَـــوف الوعـــيد		في قيـــــــــامٍ وقعـــــــــودِ
كيـــــف لا أزداد خَوْفًـــــا		وعلـــــــى النـــــار وُرُودي
كيــف جَحْــدي مــا تَـجَرَّمــْ		ــــتُ وأعضـــائي شـــهودي
كيـــف إنكـــاري ذنـــوبي		أم تُـــرى كيـــف جُحـــودي
وعليَّ القـــــول يُـــــحْصَى		برقيـــــبٍ وعتيـــــــدِ(١)

يا بعيدًا عن الصالحين

يا بعيدًا عن الصالحين، يا مطرودًا عن المفلحين، لقد نصب الشيطان الأشراك وجعل حَبَّ الفَخِّ هواك، وكم رأيت مأسورًا وَسَطَ ذاك! وليس المرادُ الآن إلّاك، احذر فَخَّه فهو بعيد الفِكاك، كم يومٍ غابت شمسُه وقلبك غائب! وكم ظلام أسبل سِتْرَه وأنت في عجائب! كم ليلةٍ بالخطايا قطعتها! وكم من أعمالٍ قبيحةٍ رفعتها! وكم من ذنوبٍ جمعتها والصحفَ أَوْدَعْتَها! كم نظرةٍ ما تحِلُّ ما خِفْتَ ولا مَنَعْتَها! كم من موعظةٍ تعيها وكأنك ما سَمِعْتَها! وكم من ذنوبٍ تَعِيبُ غيرَك بها وأنت صَنَعْتَها! وكم أَمَرَتْك النفسُ بما يُؤذي فأطعتَها! يا مُوافقًا لنفسه آذَيْتَها، خالِفْها وقد نَفَعْتَها.

طوى نَفْسَه عنك الشبابُ المُزايلُ		وأُسْلِمْتَ للشيب الذي لا يُزايلُ
نسير إلى الآجال في كلِّ ساعةٍ		وأيامُنا تُطوى وهُنَّ مَراحلُ
ولم أرَ مثلَ الموتِ حقًّا كأنَّه		إذا ما تَـخَطَّتْه الأمانيُّ باطلُ

---

(١) «التبصرة» (٢/٢٧٢-٢٧٣).

وما أقبحَ التفريطَ في زمن الصِّبا   فكيف به والشَّيْب في الرأس شاملُ
تَرَحَّلْ عن الدنيا بزادٍ من التُّقَى   فعُمْرُك أيامٌ وهُنَّ قلائلُ

الدنيا كنبات توجه فيه الصلاح

الدنيا كنَباتٍ توجه فيه الصَّلاح، فسأل زُرّاعه له الغيث في المساء والصباح، وهبت نسيم الجَنوب وأقبل الرعد له اضطراب وصياح، فأجاده ونفع ذلك السّماح(١)، فتبسم الروض تبسم المحبين عند المزاح، فلما تمّ وانتُظر به الأرباح، هبت عليه صَرْصَر الهلاك ودامت باللَّحاح، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

يا مَنْ ضَيّع في المعاصي عمره، يا مَنْ غلبت على قلبه السكرة، يا مَنْ لا تصفو في الآخرة عنده فِكرة، ويحك تزود للسَّفْرة، فقد بقي القليل فتأهب لنزول الحُفرة، ثم تقوم مبنيًّا بالقُدْرة، وتحضر للحساب في الحَضْرة، وتُسْأل عن الخطرة والنظرة، وحيدًا لا جمع ولا كثرة، فقيرًا لا تملك ذَرّة، والعَين كالعَين في سرعة العَبْرة، والمعاتبة يوم المعاينة مُرّة، والفقر شديد ولا ساعة العُسْرة، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

قام الناس ينفضون التراب، فزال الشك والارتياب، وذلت للأهوال الرقاب، وحارت العقول والألباب، وحضر الميزان والحساب، وتميَّز الخطأ من الصواب، وقوي على العاصين العتاب، فالحاضر منهم بالحزن قد غاب، وكيف لا والنار المآب؟ والسؤال دقيق ولا جواب، والحاكم رب الأرباب، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) أي: الجود.

كتاب ينطق بما جرى شِفاها، كتاب عَرف بصفات الأعمال وحواها، تُعْرَضُ خائنة الأعين على مَنْ قد رآها، وخافية الصدور صاحبها أخفاها، يجازي بالذرة من الخير ولا ينساها، سبحان مَنْ قَدَّر الأمور وأمضاها، وأسخط النفوس تقديره وأرضاها، وأَحْضَر زُمَرَ المتقين ثم نجاها، زرعوا جنات اليقين فالتقطوا جَنَاها، فأما زُمَرُ الجَحْد فالنار مأواها، تستغيث عطشى ولو رحمها سقاها، الغسلين شرابها، والزقوم مرعاها، عُرِضَتْ عليها ذنوبٌ قد وصفها الكتاب وسَمّاها، فاستغاثت فما أجيبت كما لم تُجِبْ مَنْ ناداها، ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩](١).

يا ميت القلب

يا هذا، كم تتزيّا بزيِّ العُبَّادِ والزُّهَّاد، وحالُ قلبك في الغفلةِ ما حال، الظّاهرُ منكَ نقيٌّ والباطن منك مُتَّسِخٌ بطولِ الآمال، لا تَصلح المحبة لمن يُمِيلُه حبُّ المال، ولولا مكابَدَةُ المجاهدة لم يُسَمَّ القومُ رجال(٢)، يا ميتَ القلب، وعدُك في الدنيا صحيح وفي الآخرة مُحال، إنْ لم تُبادر في الشَّباب فبادر في الاكتهال، ما بعدَ شيبِ الرَّأس لهوٌ وما أبعد عثرة الشَّيخ أن تُقال، ضَيَّعتَ زمانَ الشَّبابِ في الغفلة وفي الكِبَر تبكي على التَّفريطِ في الأعمال، لو علمت ما أُحْصِيَ عليك لكنتَ من الباكين طول اللَّيال(٣).

---

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٥٤-٢٥٥).

(٢) صوابها نحويًّا: «رجالًا» وقد يُستخرج لها وجه.

(٣) «بحر الدموع» (ص ٦٥).

يا معدودًا مع الشيب في الصبيان

يا معدودًا مع الشيب في الصبيان، يا محبوسًا مع البصراء في العميان، يا واقفًا في الماء وهو ظمآن، يا عارفًا بالطريق وهو حَيْران، أما وُعِظْتَ بآي القرآن؟ أما زُجِرْتَ بنأي الأقران؟ أما تعتبر بصروف الزمان؟ أتعمر المنزل وعلى الرحيل السكان؟ أما يكفي وعظ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾؟ [الرحمن: ٢٦]، تسافر ببضائع الأمانة وما تنزل إلا في خانِ مَنْ خان، أفعالك كلها مكتوبة فيا ليت ما كان ما كان، تدفن الميت ولا وعظ كالعِيان، ثم تعود غافلًا يا قرب ذا النسيان، ويحك! أما تدري أن الهوى هوان؟ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

نُراعُ إذا الجنائز قابلتْنا ... ونَسْكُنُ حين تخفى ذاهبات
كروعة ثَلَّةٍ[1] لظهور ذئبٍ ... فلما غاب عادت راتعات[2]

□□□□□

(١) الثَّلَّةُ: جماعة الغنم.

(٢) «المدهش» (ص ٥١٨).

الباب الثالث

في

السؤال عند الموت

السؤال عند الموت

سؤال المكذبين

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

قال ابن سعدي: أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل، ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبًا لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغنٍ عنهم شيئًا، يتمتعون قليلًا ثم يتعذبون طويلًا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾؛ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم،﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم في تلك الحال توبيخًا وعتابًا: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ أي: اضمحلوا وبطلوا وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ مستحقين للعذاب المهين الدائم. اهـ.

سؤال من ظلموا أنفسهم
بسكناهم بين ظهراني المشركين
وتركهم الهجرة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟[1]

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؟

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

قال ابن سعدي: هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير، والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين، ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة[2]، ولهذا

---

(١) وسيأتي أن الميت إذا صار إلى القبر يسأل: فيم كنت؟ انظر (صفحة ٦٥).

(٢) وذلك كما قال تعالى بعد الآية: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨-٩٩].

قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾، وهذا استفهام تقرير؛ أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾. اهـ.

وعن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن قال: قُطِعَ على أهل المدينة بَعْثٌ فاكْتُتِبْتُ فيه، فلقِيتُ عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشدَّ النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكَثِّرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السَّهْمُ فيُرْمَى به، فيُصِيبُ أحدَهم فيَقْتُلُهُ أو يُضْرَبُ فيُقْتَلُ، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[1].

□□□□□

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٩٦ و٧٠٨٥) وغيره.

الباب الرابع

في

السؤال في القبر

السؤال في القبر

ما كنت تعبد؟

ما كنت تقول في هذا الرجل؟

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن نبي الله ﷺ دخل نخلًا لبني النَّجّار، فسمع صوتًا ففزع فقال: «مَنْ أَصْحَابُ هَذِهِ الْقُبُورِ؟» قالوا: يا رسول الله: ناسٌ ماتوا في الجاهلية. فقال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ». قالوا: ومم ذاك يا رسول الله؟ قال:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَعْبُدُ؟ فَإِنِ اللهُ هَدَاهُ قَالَ: كُنْتُ أَعْبُدُ اللهَ. فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. فَمَا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ غَيْرِهَا، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى بَيْتٍ كَانَ لَهُ فِي النَّارِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا بَيْتُكَ كَانَ لَكَ فِي النَّارِ، وَلَكِنَّ اللهَ عَصَمَكَ وَرَحِمَكَ، فَأَبْدَلَكَ بِهِ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ. فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأُبَشِّرَ أَهْلِي. فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ.

وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ فَيَنْتَهِرُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَعْبُدُ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي. فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ. فَيُقَالُ لَهُ: فَمَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيَضْرِبُهُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا الْخَلْقُ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨ و١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وأبو داود (٤٧٥١) والسياق له، وغيرهم.

من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله، وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عُودٌ يَنكُتُ به في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثًا، فقال:

«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مرتين، أو ثلاثًا.

ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» ثلاثًا.

ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ[1] مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ (وفي رواية: الْمُطْمَئِنَّةُ)، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، (وفي رواية: حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ)، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ

(١) هو ما يُخلط من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة. «نهاية».

الْحَنُوطِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ [عَزَّ وَجَلَّ]: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ ـ يعني بها ـ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ * يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٩-٢١]. فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قال: «فَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ

عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قال: «وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ)، رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوَانٍ مِنَ اللهِ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا. ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا [كَانَ] مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذَا. فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ، كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي. فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ».

قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ (وفي رواية: الْفَاجِرَ) إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[١] مِنَ النَّارِ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ».

قال: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[٢] الْكَثِيرُ الشُّعَبِ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتُقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ

(١) واحدها: مِسْح، وهو كساء من شعر، والمراد الكفن.

(٢) السَّفود والسُّفود: عُودٌ من حديد يُنظَمُ فيه اللحمُ ليُشْوَى، وشُعَب السفود: أسنانه التي يُغرز فيها اللحمُ للشِّواء. «معجم».

بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ. فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ مِنَ السَّمَاءِ طَرْحًا، حَتَّى تَقَعَ فِي جَسَدِهِ». ثم قرأ: «﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ [الحج: ٣١]، فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ [لَهُ] مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ، فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَاكَ.

قال: «فَيُقَالَ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ،

فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ) رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا. ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ (أو قال: أَحَدُكُمْ) أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ. وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ. فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ. فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ.

---

(١) حديث صححه الحاكم، والذهبي، وابن القيم، ثم الألباني، ومن كتابه «أحكام الجنائز» نقلته، لما أودعه رحمه الله فيه من الزيادات الكثيرة والروايات العديدة، فجزاه الله خيرًا.

وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»[1].

سؤال: فيم كنت؟

ما هذا الرجل؟ هل رأيت الله؟

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ، غَيْرَ فَزِعٍ، وَلَا مَشْعُوفٍ[2]، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ. فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَصَدَّقْنَاهُ. فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ. فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ. ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا، وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ. وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فِي قَبْرِهِ، فَزِعًا مَشْعُوفًا، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي. فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وغيره، وجَوّد إسناده الألباني في «الصحيحة» (١٣٩١).

(٢) الشَّعَفُ: شدة الفزع حتى يذهب بالقلب. «نهاية»

قَوْلًا، فَقُلْتُهُ. فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى»(١).

فصل

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذْ بَصُرَ بجماعة، فقال:

«عَلَامَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ؟».

قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبَدَرَ بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بَلّ الثَّرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال:

«أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا»(٢).

فانظر يا عبد الله إلى ما أمامك من سؤال الملكين، وأعِدَّ للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، ولا يمكنك ذلك إلا أن تكون في هذه الدنيا مطيعًا لله عز وجل، قد أحسنت في عبادتك له سبحانه، وأخلصت له الدين، واتبعت هدي رسوله ﷺ، واجتنبت المعاصي بكل استطاعتك، لم تفتنك الدنيا بشهواتها، ولم تغررك بزخارفها، فعملت بالتقوى، ولم تركن إلى الأماني.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، وأحمد (٢٩٤/٤) واللفظ له، وغيرهما، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣٤٥/٤).

وقد قيل: البصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره، فيرى مكانه بين أظهرهم، فيستعد للحوق بهم، ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، ويتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مُضَيِّعٌ له لكان أحبَّ إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار، وانكشف لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يوم من العمر، ليتدارك المقصرُ به تقصيرَه، فيتخلص من العقاب، وليستزيد به رتبته، فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت قادر على تلك الساعة.

وقيل: غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يُفَرِّطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي.

وقال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير.

وقال الشاعر:

لو قيلَ لقومٍ ما مناكُمُ طلبوا ... حياةَ يومٍ ليتوبوا فاعلمِ
ويحكِ يا نفسُ ألَا تيقظٌ ... ينفعُ قبلَ أن تزلَّ قَدَمي
مضى الزمانُ في توانٍ وهوًى ... فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

□□□□□

الباب الخامس

في

أسئلة يوم القيامة

أسئلة يوم القيامة

سؤال الرسل: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾؟

وسؤال المرسل إليهم: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أُجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]»(١).

وقول الرسل: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾؛ قال مجاهد والحسن البصري والسدّي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.

قال عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش عن مجاهد: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾، فيفزعون فيقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، حدثنا عنبسة قال:

---

(١) سيأتي الكلام على هاتين الآيتين.

سمعت شيخًا يقول: سمعت الحسن يقول في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ الآية، قال: من هول ذلك اليوم.

وقال أسباط عن السدي: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، ذلك أنهم نزلوا منزلًا ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، ثم نزلوا منزلًا آخر فشهدوا على قومهم. رواه ابن جرير.

ثم قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؛ أي: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا. رواه ابن جرير، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله؛ أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أُجِبْنا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم مَنْ كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم، فإنك ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾». انتهى كلام ابن كثير.

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا

يَعۡبُدُونَ ۝ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ۝ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٢-٦٦].

روى ابن جرير عن ابن جريج في قوله: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، قال: بـ «لا إله إلا الله»؛ التوحيد.

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾؛ النداء الأول[(١)] عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات؛ ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره: مَنْ ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري. ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

وقال ابن سعدي: ﴿ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾؛ أي: لم يجيروا عن هذا السؤال جوابًا، ولم يهتدوا إلى الصواب. ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

---

(١) يعني بالنداء الأول قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ﴾، وسيأتي تفصيل الكلام على هذا السؤال، إن شاء الله تعالى.

يجيبون به ولو كان كذبًا. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧].

قال ابن سعدي: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: لنسألن الأمم الذين أَرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا رسلهم.

قال: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم رسالات ربهم، وعما أجابتهم به أممهم. اهـ

وقال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: لنسألن الأمم الذين أَرسلتُ إليهم رسلي: ماذا عملتْ فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتُهم إلى الأمم: هل بلَّغَتْهم رسالاتي، وأدَّت إليهم ما أمرتُهم بأدائه إليهم، أم قصّروا في ذلك ففرَّطوا ولم يبلغوهم[1]؟

وروى عن ابن عباس قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلّغوا.

وروى عنه قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَآئِبِينَ﴾، قال: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون.

---

(١) وحاشا الرسل من التقصير، بل بلغوا الرسالات كما أمرهم ربهم تبارك وتعالى، وإنما يُسألون عن ذلك أمام أقوامهم توبيخًا لمن خالفهم، وإقامة لحجة الله وعدله على عباده. كما سيأتي بيانه من كلام ابن جرير وغيره.

وروى عن السدي: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، يقول: فلنسألن الأمم: ما عملوا فيما جاءت به الرسل؟ ولنسألن الرسل: هل بلّغوا ما أُرسلوا به؟

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: يقول تعالى ذكره: فلنخبرن الرسل ومن أرسلتُهم إليهم بيقين علمٍ بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه، ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها. اهـ

فائدة: قال ابن جرير: «فإن قال قائل: وكيف يَسأل الرُّسلَ والمرسلَ إليهم وهو يخبر أنه يقصّ عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟

قال: قيل: إن ذلك منه تعالى ذكره ليس بمسألة استرشاد، ولا مسألة تعرّف منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: «ألم أحسن إليك فأسأت؟» و«ألم أصلك فقطعت؟». فكذلك مسألة الله المرسلَ إليهم؛ بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتنذركم عذابي وعقابي في هذا اليوم من كفر بي وعبد غيري؟ كما أخبر جل ثناؤه أنه قال لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠-٦١]، ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهر المسألة ومعناه الخبر والقصص، وهو بعدُ توبيخ وتقرير.

وأما مسألة الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشركة لما سئلت في

القيامة قيل لها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٧١]؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]. فقيل للرسل: «هل بلغتم ما أرسلتم به؟» أو قيل لهم: «ألم تبلغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به؟»، كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ(١)، وكما قال جل ثناؤه لأمة نبينا محمد ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فكل ذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أُرسلوا إليه من الأمم، وللمرسَل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكل ذلك بمعنى القصص والخبر.

فأما الذي هو عن الله منفيٌّ من مسألته خلقه، فالمسألة التي هي مسألة استرشاد واستثبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول، ليعلم السائل علم ذلك من قِبَله، فذلك غير جائز أن يوصف الله به، لأنه العالم بالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها جل ثناؤه عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وبقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: لا يَسأل عن ذلك أحدًا منهم بمسألة مستثبت، ليَعلم عِلم ذلك من قِبَلِ مَنْ سأل منه، لأنه العالم بذلك كله وبكل شيء غيره». اهـ

وقال القرطبي في تفسير (سورة الحجر/الآية ٩٢): «القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه.

---

(١) يريد حديث أبي سعيد رضي الله عنه الآتي .

قال عكرمة: القيامة مواطن، يُسأل في بعضها ولا يُسأل في بعضها.

وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام: هل عملتم كذا وكذا؟ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقرير وتوبيخ، فيقول لهم: لم عصيتم القرآن؟ وما حجتكم فيه؟

واعتمد قطرب هذا القول».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]: «أي: لا يُسألون سؤال استعتاب، كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]، وإنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. قاله الحسن».

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»[(١)]: «قد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافًا، اعلم أولًا أن السؤال المنفي في قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] أخص من السؤال المثبت في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

---

(١) (٧/٧٥٣-٧٥٤).

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أن السؤال نوعان: أحدهما: سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب، والثاني: هو سؤال الاستخبار والاستعلام.

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام، لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وعليه فالمعنى: لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان سؤال استخبار واستعلام: لأن الله أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ﴾[الطور: ١٣-١٥] الآية، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: ٧١].

أما سؤال الموءودة في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب، لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت: وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه، لأنها هي تقول: لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلمًا.

وكذلك سؤال الرسل، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته...». اهـ.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ: أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ». قال: «فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾» [البقرة: ١٤٣][(١)].

سؤال نوح عليه الصلاة والسلام

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ:

يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ. فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ. فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، والوَسَطُ: العَدْلُ».

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٩) بالرواية الثانية، والترمذي (٢٩٦١) مختصرًا، وابن ماجه (٤٢٨٤)، واللفظ له، وغيرهم.

سؤال عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ * مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩].

قال ابن كثير: «هذا مما يخاطب اللهُ به عبدَه ورسولَه عيسى ابن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾.

وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا.

قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا».

قال ابن كثير: والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

قال: وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل.

قال: وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾؛ أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾؛ بإبلاغه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: هذا هو الذي قلتُ لهم.

قال: وقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾؛ أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قال: وقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعَّال لما يشاء الذي لا

يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله ندًّا وصاحبًا وولدًا تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها[1]. اهـ.

قلت: وساق الحديث، وها أنا أذكره نقلًا عن «صفة الصلاة»، لما فيه من الزيادات التي ذكرها شيخنا عليه رحمة الله تعالى:

قام ليلة بآية يرددها حتى أصبح، وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، [بها يركع، وبها يسجد، وبها يدعو]، [فلما أصبح قال له أبو ذر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها، وتسجد بها]، [وتدعو بها]، [وقد علمك الله القرآن كله]، [ولو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه!] [قال: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا]».

سؤال الصادقين عن صدقهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧ -٨].

قال ابن سعدي: «يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عمومًا ومن أولي العزم

(١) أخرجه النسائي (١٧٧/٢)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وابن خزيمة (٢٧٠/١)، وغيرهم، وحسنه الألباني رحمه الله تعالى.

ـ وهم هؤلاء الخمسة المذكورون ـ خصوصًا ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون حتى خُتِموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالاقتداء بهم».

وقوله سبحانه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: أخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم وما فعل قومهم فيما أبلغوهم عن ربهم من الرسالة.

قال ابن القيم: «فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟!

قال مقاتل: يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يَسأل اللهُ الصادقين ـ يعني النبيين ـ عن تبليغ الرسالة.

وقال مجاهد: يسأل المبلِّغين المؤدِّين عن الرسل. يعني: هل بلغوا عنهم، كما يَسأل الرسل: هل بلغوا عن الله تعالى.

والتحقيق أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل والمبلِّغون عنهم، فيسأل الرسل عن التبليغ، ويسأل المبلِّغين عنهم عن تبليغ ما بلَّغهم الرسلُ، ثم يسأل الذين بلَغَتْهم الرسالةُ: ماذا أجابوا المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قال قتادة: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فيُسأل عن المعبود، وعن العبادة» اهـ

فائدة: قال القرطبي: قيل: فائدة سؤالهم - يعني: الأنبياء - توبيخ الكفار، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]. اهـ

قلت: وفوائد أخرى، منها: تشريفهم بذلك ورفع درجتهم بتصديق الله عز وجل لجوابهم. وأيضًا إقامة شهادتهم على غيرهم، فهم أفضل شهداء الله على عباده وأكرمهم. وأيضًا: إظهار عدل الله تعالى بسؤال المرسلين وسؤال المرسَل إليهم. وغير ذلك من الحكم والفوائد.

سؤال الله تعالى للمعبودين من دونه

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَنْ عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم،

فقال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ قال مجاهد: هو عيسى والعزير والملائكة، ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الآية؛ أي: فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى مخبرًا عما يجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الفرقان: ١٨].

قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾؛ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١][١].

وقرأ آخرون: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نُتَّخَذَ[٢] مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾؛ أي: ما

---

(١) سيأتي الآن الكلام على هاتين الآيتين.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر.

ينبغي لأحد أن يعبدنا فإنَّا عبيدٌ لك فقراء إليك، وهي قريبة المعنى من الأولى. ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: طال عليهم العمر، ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

قال ابن عباس: أي هلكى. وقال الحسن ومالك عن الزهري: أي: لا خير فيهم. انتهى كلام ابن كثير.

وقال ابن القيم بعد الإمعان في تفسير هذه الآيات[1]:

«ثم قال: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾؛ إخبارًا عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: ينادي منادٍ يوم القيامة حين يجتمع الخلائق: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، يقول: من عُبِد من دون الله لا يَنصر اليوم مَنْ عَبَده، والعابد لا ينصر إلهه، ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فوا سوءَ حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين إذا سمعوا النداء: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩-٦٢]».

---

(١) انظر ـ إن شئت ـ «إغاثة اللهفان» (٢/٢٤٣) وما قبلها.

سؤال الملائكة عمن عبدهم من المشركين

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ * فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

قال المراغي: «أي: يوم يَحشر العابدين المستكبرين منهم والمستضعفين مع المعبودين من الملائكة وغيرهم، ثم تُسأل الملائكة: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟

وهذا سؤال وُجِّهَ إلى الملائكة ظاهرًا، والمراد منه تقريع المشركين وتيئيسهم مما علّقوا عليه أطماعهم من شفاعتهم لهم، فهو على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى برآء مما وُجِّهَ إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، ولكن جاء ليقول ويقولوا، ويَسأل ويُجيبوا، فيكون توبيخهم أشد، وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم[1].

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾؛ أي: قالت الملائكة: تعاليت ربنا

---

(١) وتقدم ذكر شيء من الفوائد في سؤال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. انظر (صفحة ٧٥) وما بعدها.

وتقدست عن أن يكون معك إله، نحن عبيدك نبرأ إليك من هؤلاء، وأنت الذي نواليه دونهم، فلا موالاة بيننا وبينهم. والخلاصة: إننا برآء من عبادتهم والرضا بهم.

ثم بين أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: بل هم كانوا يعبدون الشياطين، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون، إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم ويستغيثون بهم في قضاء حاجتهم، كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة.

ونحو الآية قوله: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١١٧-١١٨].

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقريعهم وتأنيبهم زادهم أسًى وحسرةً فقال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾؛ أي: فاليوم لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكروبكم، لأن الأمر في ذلك اليوم لله الواحد القهار، لا يملك أحد فيه منفعة لأحد ولا مضرة له.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾؛ أي: ونقول للمشركين زجرًا لهم وتأنيبًا: ذوقوا عذاب النار التي كنتم تكذبون بها في دنياكم، فها أنتم أولاء قد وردتموها وسمعتم شهيقها وزفيرها، وليس الخُبْر كالخَبَر، ولا السماع كالمعاينة، فعَضُّوا بَنان الندم

أسًى وحسرةً على ما قدمتم في دنياكم، فجنيتم صابَه وعَلقمه في أخراكم». انتهى بحذف يسير.

سؤال العباد أجمعين

عما كانوا يعملون

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفيق من عنده فصرتم جميعًا جماعة واحدة وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون، ولكنه تعالى ذكره خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وَفَّق هؤلاء للإيمان به والعمل بطاعته فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحَرَمَهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم الله جميعًا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم ليجازينكم جزاء المطيع منكم بطاعته والعاصي له بمعصيته.

وقال ابن كثير: ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها؛ على الفتيل والنقير والقطمير.

فائدة: قال القرطبي: اللام في «ولتُسْئَلُنَّ» مع النون المشددة يدلان على قَسَمٍ مضمر؛ أي: والله لتُسْئَلُنَّ. اهـ

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

سؤال الغاوين

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٥].

قال ابن كثير: «﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾؛ أي: أُظهرت وكُشف عنها، وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؛ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد لِتغني عنكم اليوم شيئًا ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون.

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾، قال مجاهد: يعني قد هَوَوْا فيها.

وقال غيره: كُبّوا فيها. والكاف مكررة، كما يقال: صرصر.

والمراد أنه أُلقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك».

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾؛ يقول: فرمي ببعضهم في الجحيم على بعض، وطرح بعضهم على بعض، منكبين على وجوههم. وأصل «كبكبوا» كببوا، ولكن الكاف كُررت، كما قيل: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾

[الحاقة: ٦]؛ يعني به: صَرّ، ونهنهني ينهنهني؛ يعني به: نههني».

قلت: وقد تقدم سؤال: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ وأن ذلك يُسألونه عند الموت أيضًا.

سؤال الكافرين المشركين
﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٢-٦٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ يعني: الشياطين والمردة والدعاة إلى

الكفر، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾، فشهدوا عليهم أنهم أغْوَوْهم فاتبعوهم، ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا * كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]».

وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ * وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

قال ابن كثير: «وهذا نداء ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عَبد مع الله إلهًا آخر، يناديهم الرَّب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾؛ أي: في دار الدنيا. ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾، قال مجاهد: يعني رسولًا. ﴿فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾؛ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء، ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ أي: لا إله غيره، فلم ينطقوا ولم يَحِيروا جوابًا، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم».

وقال تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ * ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٦-٢٧].

قال ابن كثير: «﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾؛ أي: يظهر فضائحهم وما كانت تجنه

ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]؛ أي: تظهر وتشتهر، كما في «الصحيحين»[1]، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة عند إسته بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان».

وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرِّعًا لهم وموبخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة وقعت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فِرار، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، وهم السادة في الدنيا والآخرة والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه».

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

قال ابن سعدي: «يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم

---

(١) هو فيهما بنحوه، دون كلمة: «عِنْدَ إِسْتِهِ»، وهي في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. وانظر (صفحة ١٢٨).

يُسألون ويُوبخون، فيقال لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]؛ أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء. ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾؛ أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويُختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين. ﴿ٱنظُرۡ﴾ متعجبًا منهم ومن أحوالهم ﴿كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: كذبوا كذبًا عاد بالخسارة على أنفسهم وضرهم والله غاية الضرر، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا».

وقال ابن كثير: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾؛ أي: حجتهم. اهـ.

وقيل في معنى هذه الكلمة غير ذلك، فقال المراغي: الفتنة هنا الشرك؛ أي: ثم لم تكن عاقبة هذا الشرك إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة أنهم ما كانوا مشركين.

قلت: وهذا هو قول ابن القيم بعينه، فإنه قال في «روضة المحبين»: أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرؤوا منه وأنكروه. اهـ.

وقال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ۞ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ [فصلت: ٤٧-٤٨].

قال ابن سعدي: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾؛ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخًا

وإظهارًا لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم وجادلتم على ذلك، وعاديتم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾؛ أي: أعلمناك يا ربنا واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾ من دون الله؛ أي: ذهبت عقائدهم وأعمالهم التي أفْنَوْا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن شركاؤهم شيئًا، ﴿وَظَنُّواْ﴾؛ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾؛ أي: منقذ ينقذهم ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره يبينها الله لعباده ليحذروا الشرك به. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ * إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ * ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ * ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٠-٧٦].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛

يقول: ثم قيل: أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم إياها من دون الله من آلهتكم وأوثانكم حتى يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب، فإن المعبود يغيث مَنْ عبده وخدمه.

وإنما يقال هذا لهم توبيخًا وتقريعًا على ما كان منهم في الدنيا من الكفر بالله وطاعة الشيطان، فأجاب المساكين عند ذلك فقالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ يقول: عدلوا عنا فأخذوا غير طريقنا، وتركونا في هذا البلاء، ﴿بَل﴾ ما ضلوا عنا ولكنا ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿شَيْـًٔا﴾؛ أي: لم نكن نعبد شيئًا.

يقول الله تعالى ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ يقول: كما أضل هؤلاء الذين ضل عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله من الآلهة والأوثان آلهتهم وأوثانهم، كذلك يضل اللهُ أهلَ الكفر به عنه وعن رحمته وعبادته، فلا يحميهم فينجيهم من النار، ولا يغيثهم فيخفف عنهم ما هم فيه من البلاء».

سؤال المشركين عن جعلهم لشركائهم نصيبًا مما رزقهم الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

روى ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا

﴿رَزَقْنَـٰهُمْ﴾، قال: جعلوا لآلهتهم التي ليس لها نصيب ولا شيء، جعلوا لها نصيبًا مما قال الله من الحرث والأنعام[1]، يسمون عليها أسماءها ويذبحون لها.

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيبًا مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: جعلوا لآلهتهم نصيبًا مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افترَوْه وائتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

سؤال المشركين
عن جعلهم الملائكة إناثًا وبنات للرحمن
تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

---

(١) يعني في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الأنعام:١٣٦].

قال ابن كثير: أنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾؛ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثًا. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾؛ أي: بذلك، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

وقال المراغي: «﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾؛ أي: أحضروا خلق الله لهم فشاهدوهم بناتٍ حتى يحكموا بأنوثتهم؟

ونحو الآية قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠]، وفي هذا تجهيل شديد لهم ورمي لهم بالسَفَه والحمق.

ثم توعدهم على مقالهم فقال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾؛ أي: ستكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في الدنيا في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها يوم القيامة ليأتوا ببرهان على صحتها، ولن يجدوا لذلك سبيلًا».

سؤال الكافرين

عن إنكارهم البعث والنشور

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا

لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وأنذر يا محمد الناس الذين أرسلتك إليهم داعيًا إلى الإسلام ما هو نازل بهم يوم يأتيهم عذاب الله في القيامة، ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾؛ يقول: فيقول الذين كفروا بربهم فظلموا بذلك أنفسهم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾؛ أي: أخّر عنا عذابك وأمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ الحق، فنؤمن بك ولا نشرك بك شيئًا، ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾؛ يقولون: ونصدّق رسلك فنتبعهم على ما دعوتنا إليه من طاعتك واتباع أمرك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾، قال: وهذا تقريع من الله تعالى ذكره للمشركين من قريش بعد أن دخلوا النار بإنكارهم في الدنيا البعث بعد الموت، يقول لهم إذ سألوه رفع العذاب عنهم وتأخيرَهم لينيبوا ويتوبوا: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾؛ يقول: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وإنكم إنما تموتون ثم لا تبعثون؟

وروى عن مجاهد قال: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ كقوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ﴾ [النحل: ٣٨]. ثم قال: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾، قال: الانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

وقال ابن كثير: أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة إنه لا

زوال لكم عما أنتم فيه، وإنه لا معاد ولا جزاء؟ فذوقوا هذا بذلك. اهـ

وقوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾، قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وسكنتم في الدنيا في مساكن الذين كفروا بالله فظلموا بذلك أنفسهم من الأمم التي كانت قبلكم، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾؛ يقول: وعلمتم كيف أهلكناهم حين عَتَوْا على ربهم، وتمادَوْا في طغيانهم وكفرهم، ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾؛ يقول: ومثَّلنا لكم فيما كنتم عليه من الشرك بالله مقيمين الأشباه، فلم تنيبوا ولم تتوبوا من كفركم، فالآن تَسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم ما قد نزل بكم من العذاب، إن ذلك لغير كائن.

سؤال الكافرين عن افترائهم

وقولهم للمؤمنين: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

قال ابن كثير: يقول الله تعالى مخبرًا عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا من دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا، ﴿وَلْنَحْمِلْ

خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ أي: وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي. قال الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا * يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾ [المعارج: ١٠-١١]. اهـ

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وليحملن هؤلاء المشركون بالله القائلون للذين آمنوا به: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم. أوزارَ أنفسهم وآثامها وأوزارَ مَنْ أضلوا وصدّوا عن سبيل الله مع أوزارهم، وليُسألن يوم القيامة عما كان يَكذبونهم في الدنيا بوعدهم إياهم الأباطيل، وقيلهم لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ ، فيفترون الكذب بذلك.

سؤال الكافرين

﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾، قال ابن

جرير: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال: أجحدتم توحيدَ الله وعهدَه وميثاقَه الذي واثقتموه عليه بأن لا تشركوا به شيئًا وتخلِصوا له العبادة ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؛ يعني: بعد تصديقكم به؟ ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ يقول: بما كنتم تجحدون في الدنيا ما كان الله قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق.

وروى عن أُبيّ بن كعب في قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قال: هو الإيمان الذي كان قبل الاختلاف في زمان آدم حين أخذ منهم عهدهم وميثاقهم، وأقرّوا كلهم بالعبودية، وفطرهم على الإسلام، فكانوا أمة واحدة مسلمين. يقول: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؛ يقول: بعد ذلك الذي كان في زمان آدم. اهـ

وصوّب ابن جرير رحمه الله هذا القول وأن الله سبحانه عنى بقوله جميع الكفار، وأن الإيمان الذي يوبّخون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذي أقرّوا به يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

سؤال الكافرين إذا وقفوا بين يدي الله تعالى عن المعاد وما فيه من الثواب والعقاب ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

قال ابن كثير: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: أُوقفوا بين يديه، قال: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟

وقال ابن جرير: ﴿إِذۡ وُقِفُواْ﴾؛ يوم القيامة؛ أي: حُبِسوا، ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ يعني: على حكم الله وقضائه فيهم.

وقال ابن سعدي في تفسير الآية: أي ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ الكافرين ﴿إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ لرأيت أمرًا عظيمًا وهولًا جسيمًا. ﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقرّعًا: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا﴾ الذي تَرَوْن من العذاب ﴿بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، فأقروا واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك.

سؤالهم عند عرضهم على النار

﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

قال القرطبي: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ذكِّرهم يوم يعرضون فيقال لهم: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

وقال ابن كثير: قال جل جلاله مهدِّدًا ومتوعِّدًا مَنْ كفر به: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: يقال لهم: أمَا هذا حق؟ ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾؛ أي: لا

يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ويوم يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث وثواب الله عباده على أعمالهم الصالحة وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة على النار، نار جهنم، يقال لهم حينئذ: أليس هذا العذاب الذي تعذَّبونه اليوم وقد كنتم تكذبون به في الدنيا بالحق؟ توبيخًا من الله لهم على تكذيبهم به كان في الدنيا.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾؛ يقول: فيجيب هؤلاء الكفرة من فورهم بذلك، بأن يقولوا: بلى هو الحق والله.

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ يقول: فذوقوا عذاب النار الآن بما كنتم تجحدونه في الدنيا، وتنكرونه، وتأبَوْن الإقرار إذا دُعيتم إلى التصديق به.

سؤالهم إذا برزت الجحيم

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٣].

تقدم الكلام على هذه الآيات[1].

(١) انظر (صفحة ٩٠).

سؤالهم عند حشرهم إلى النار وهدايتهم إلى صراط الجحيم والقول لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٠-٢٦].

قال ابن سعدي: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال، فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يهزؤون. فقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

قال: «أي إذا حضروا يوم القيامة وعاينوا ما به يكذبون ورأَوْا ما به يستسخرون يؤمر بهم إلى النار التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ الذين من جنس عملهم كل يضم إلى مَنْ يجانسه في العمل، ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، اجمعوهم جميعًا ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: سوقوهم سوقًا عنيفًا إلى جهنم. وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار ويعرفون

أنهم من أهل دار البوار يقال: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم، ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؛ أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي فرقكم حتى لا ينصر بعضكم بعضًا ولا يغيث بعضكم بعضًا؟ بعد ما كنتم تزعمون في الدنيا أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم أو تشفع لكم عند الله. فكأنهم لا يجيبون على هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا، وأُبلِسوا فلم ينطقوا، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون أذلاء، فكلهم مستسلم غير منتصر».

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾؛ أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا. اهـ

وعن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي قال: سمعت عبد لله بن عمرو وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدِّث به تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله أو لا إله إلا الله أو كلمةً نحوها، لقد هممت أن لا أحدث أحدًا شيئًا أبدًا، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا، يُحَرَّقُ البيت، ويكون ويكون، ثم قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ ـ لَا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ

شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا ـ، فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَقْبِضَهُ». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ. قال:

«فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا»(١). قال:

«وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ»(٢). قال:

«فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ ـ أو قال: يُنْزِلُ اللهُ ـ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ.

ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ. ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾». قال:

«ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ». قال:

«فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»(٣).

---

(١) أصغى: أمال. واللِّيت: صفحة العنق، وهي جانبه. «نووي».

(٢) أي: يطينه ويصلحه. «نووي».

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٠) وغيره.

سؤالهم عند سوقهم إلى النار عن إنذار الرسل لهم

قال الله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠](1).

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ * قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سَوقًا عنيفًا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]؛ أي: يُدفعون إليها دفعًا، هذا وهم عَطاشى ظِماء، كما قال جل وعلا في الآية الأخرى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا * وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦]، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ

---

(١) انظر الكلام على هذه الآية (صفحة ١٢٤-١٢٥).

ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

قال: وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾؛ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعًا لتُعجَّل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾؛ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دَعَوْكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾؛ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: قد جاؤونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم لِـما سبقت لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال عز وجل مخبرًا عنهم في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ * وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١٠]؛ أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة، ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]؛ أي: بعدًا لهم وخسارًا.

قال: وقوله تبارك وتعالى ههنا: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛

أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يُسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حَكم العَدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها، لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

سؤالهم عند دعهم إلى النار
﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾؟!

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ * ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣-١٦].

قال ابن جرير: عنى بقوله: ﴿يُدَعُّونَ﴾ يدفعون بإرهاق وإزعاج، يقال منه: دَعَعْت في قفاه، إذا دفعت فيه.

قال: وقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ يقول تعالى ذكره: يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها في الدنيا تكذبون، فتجحدون أن ترِدوها وتَصْلوها، أو يعاقبكم بها ربكم. وتَرَكَ ذِكْرَ «يُقال لهم» اجتزاءً بدلالة الكلام عليه.

وقال في قوله تعالى: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾: يقول تعالى ذكره مخبرًا عما يقال لهؤلاء المكذبين الذين وَصف صفتهم إذا وردوا جهنم يوم القيامة: أفسحر أيها القوم هذا الذي وردتموه الآن أم أنتم لا تعاينونه ولا تبصرونه؟ وقيل هذا لهم توبيخًا لا استفهامًا.

سؤالهم إذا أُلقوا في النار

قال الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ * إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ * وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦-١١].

قال ابن سعدي: «﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، التي يهان أهلها غاية الهوان. ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾؛ أي: صوتًا عاليًا فظيعًا، ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم إذا حصلوا فيها؟!

ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ

﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: حالكم هذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تُـخْبَروا عنها، ولم تُـحذرْكم النُّذُرُ منها. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾، فجمعوا بين تكذيبهم الحاضر والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذِرين، وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالًا كبيرًا، فأيّ عنادٍ وتكبّر وظلم يشبه هذا؟!

﴿وَقَالُوا۟﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السَمْع لما أنزل الله وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل.

وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية؛ فسمعوا ما جاء من عند الله وجاء به رسول الله علمًا ومعرفةً وعملًا، والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر.

وهم في الإيمان بحسب ما مَنَّ الله عليهم به، من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان مَنْ يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير!

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: بُعْدًا لهم وخسارة وشقاء. فما

أشقاهم وأرداهم! حيث فاتهم ثواب الله وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطّلع على أفئدتهم». اهـ.

سؤالهم وهم في النار

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۞ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۞ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۞ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۞ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۞ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١١١].

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾؛ قال الشنقيطي: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: تحرقها حرقًا شديدًا. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾؛ «الكالح»: هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه، والنار ـ والعياذ بالله ـ تحرق شفاههم حتى تتقلص عن أسنانهم، كما يشاهَد مثله في رأس الشاة

المشوي في نارٍ شديدة الحر. اهـ

وقال القاسمي: وتخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، قال ابن كثير: هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: قد أرسلتُ إليكم الرسل وأنزلتُ عليكم الكتب وأزلتُ شبهكم ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١]. ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾؛ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نُرزقْها.

سؤالهـم

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟

ثم قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۞ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

قال ابن كثير: يقول تعالى منبّهًا لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده لو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؛ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾؛ أي: الحاسبين.

قال ابن جرير: فنسي الأشقياء لعظيم ما هم فيه من البلاء والعذاب مدة مكثهم التي كانت في الدنيا، وقَصُر عندهم أَمَدُ مكثهم الذي كان فيها لِما حَلّ بهم من نِقمة الله، حتى حسبوا أنهم لم يكونوا مكثوا فيها إلا يومًا أو بعض يوم، ولعل بعضهم كان قد مكث فيها الزمان الطويل والسنين الكثيرة.

سؤال خزنة جهنم لهم

﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

قال ابن كثير: لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين

ولو يومًا واحدًا من العذاب. قالت لهم الخزنة رادّين عليهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾: أي: أوَما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾؛ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نودّ خلاصكم، ونحن منكم بَراء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب.

سؤال أهل الجنة لهم

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾؟

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ * فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

قال ابن كثير: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ فإنهم ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ إلخ.

قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾؛ أي: من كان متصفًا بمثل هذه الصفات

فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع؛ لأن الشفاعة إنما تَنْجَع إذا كان المحل قابلًا، فأما من وافى الله كافرًا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة خالدًا فيها.

سؤال أول مَنْ تسعر بهم النار

عن شُفَيٍّ الأصبحي أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع الناس عليه، فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت: أُنشدك بحق وحق لَـمَا حدثتني حديثًا سمعتَه من رسول الله وعلمتَه، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلتُه، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكث قليلًا ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، فمكث بذلك ثم أفاق ومسح وجهه، فقال: أفعل لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم مال خارًّا على وجهه، وأسندته طويلًا، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ:

«أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَزَلَ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ.

فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ،

فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ». ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال:

«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

قال النووي: قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار دليلٌ على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

قال: وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، والحاكم (٤١٨/١)، وغيرهم، واللفظ للحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

الخيرات، كله محمول على مَنْ فعل ذلك لله تعالى مخلصًا.

وقال ابن رجب(١): إنما زاد عذاب أهل الرياء على سائر العصاة لأن الرياء هو الشرك الأصغر، والذنوب المتعلقة بالشرك أعظم من المتعلقة بغيره.

سؤال أهون أهل النار عذابًا

«لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟»

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»(٢).

وفي رواية: أن النبي ﷺ قال:

«يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ». قال: «فَيُقَالُ: لَقَدْ سُئِلْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾» [آل عمران: ٩١].

---

(١) «التخويف من النار» (ص ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٤ و٦٥٣٨ و٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥)، وغيرهما. والرواية الثانية لأحمد في «المسند» (١٢٨٧٥): حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك.

وفيه سعيد، هو ابن أبي عَـرُوبة، وصفه الحافظ في «التقريب» بأنه: كثير التدليس واختلط. لكن قال: وكان من أثبت الناس في قتادة.

قلت: وروح (ابن عبادة) روى عنه قبل الاختلاط.

سؤال بني آدم وعتابهم
على عبادتهم الشيطان

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؟

قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

قال ابن كثير: هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعَصَوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم.

وقال ابن جرير: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾؛ يقول: ألم أُوصِكم وآمرْكم في الدنيا ألا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ يقول: وأقول لكم: إن الشيطان لكم عدو مبين؛ قد أبان لكم عداوته بامتناعه من السجود لأبيكم آدم حسدًا منه له على ما كان الله أعطاه من الكرامة، وغُرورِه إياه حتى أخرجه وزوجته من الجنة.

قال: وقوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ يقول: وألم أعهد إليكم أن اعبدوني دون كل ما سواي من الآلهة والأنداد، وإياي فأطيعوا؟ فإن إخلاص عبادتي، وإفراد طاعتي، ومعصية الشيطان، هو الدين الصحيح، والطريق المستقيم.

وقال: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾: ولقد صَدّ الشيطان منكم خلقًا كثيرًا عن طاعتي، وإفرادي بالألوهية حتى عبدوه، واتخذوا من دوني آلهة يعبدونها.

قال: وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾؛ يقول: أفلم تكونوا تعقلون أيها المشركون إذ أطعتم الشيطان في عبادة غير الله، أنه لا ينبغي لكم أن تطيعوا عدوكم وعدو الله وتعبدوا غير الله. اهـ

قلت: وهذا المقام كعتابه سبحانه لهم في الدنيا وتوبيخه إياهم بقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده وكفر نعمتي عليه وغرّه حتى أخرجه من الجنة ونعيم عيشه فيها إلى الأرض وضيق العيش فيها، وتطيعونه وذريته من دون الله مع عداوته لكم قديمًا وحديثًا، وتتركون طاعة ربكم الذي أنعم عليكم وأكرمكم، بأن أسجد لوالدكم ملائكته، وأسكنه جناته، وآتاكم من فواضل نعمه ما لا يحصى عدده؟

قال ابن سعدي: وفي هذه الآية: الحث على اتخاذ الشيطان عدوًّا والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم مَنْ اتخذ عدوه الحقيقي وليًّا، وترك الولي الحميد؟! اهـ

وروى أبو نعيم في «الحلية»[١]، عن أبي المَليح قال: قرأ ميمون (يعني:

---

(١) (٢/٩٢).

ابن مِهْران): ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فرقّ حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بعَتْب أشدّ منه قط.

يعني: قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ الآيات.

السؤال عن القرآن وآيات الله عز وجل

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

قال ابن سعدي: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: هذا القرآن الكريم، ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يُقادَر قَدْرُها، ولا يُعرف وصفها، ويُذكركم أيضًا ما فيه من الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويُذكركم الشر ويرهبكم عنه. ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به، فيكون حجة عليكم وكفرًا منكم بهذه النعمة؟

سؤالهم

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣-٨٥].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة وحَشْر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعًا وتصغيرًا وتحقيرًا، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؛ أي: من كل قوم وقرن فوجًا؛ أي: جماعة، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ قال: أي يدفعون ويساقون إلى موقع الحساب. وقال قتادة: ﴿يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُرَدّ أولُهم على آخرهم. اهـ.

قال ابن جرير: يُحبس أولُهم على آخرهم ليجتمع جميعهم، ثم يساقون إلى النار.

وقال ابن سعدي: يُجمع أولُهم على آخرهم وآخرهم على أولهم، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلخ، قال القرطبي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾؛ أي: قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ التي أنزلتها على رسلي، وبالآيات التي أقمتها دلالة على توحيدي، ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾؛ أي: ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين، ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟! تقريع وتوبيخ؛ أي: ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا ما فيها.

وقال ابن كثير: أي يُسألون عن اعتقادهم وأعمالهم.

وقال ابن سعدي: أي يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمَهم تكذيبًا بالحق، وعملَهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾، قال: أي حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لأنه لا حجة لهم.

سؤالهم

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؟!

قال الله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

قال ابن جرير: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما هو قائل يوم القيامة لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذكره يومئذ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾، يقول: يخبرونكم بما أوحي إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلّتي على توحيدي وتصديق أنبيائي، والعمل بأمري والانتهاء إلى حدودي، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ يقول: يحذّرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتكم إياي، فتنتهوا عن معاصيّ.

قال: وهذا من الله جل ثناؤه تقريع وتوبيخ لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رسلٌ منكم ينبّهونكم على خطأِ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة، وينذرونكم وعيدَ الله على مقامكم على ما كنتم عليه مقيمين، فلم تقبلوا ذلك، ولم تتذكروا، ولم تعتبروا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ إلخ، قال: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريعه إياهم بقوله لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أنهم يقولون: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾، بأن رسلك قد أتتنا بآياتك، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا، فكذبناها وجحدنا رسالتها، ولم نتبع آياتك ولم نؤمن بها.

قال: قال الله خبرًا مبتدَءًا: وغَرَّتْ هؤلاء العادلين بالله الأوثانَ والأصنامَ وأولياءَهم من الجن ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يعني: زينة الحياة الدنيا وطلب الرياسة فيها والمنافسة عليها، أن يسلموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قومًا عالين. فاكتفى بذكر الحياة الدنيا من ذكر المعاني التي غرتهم وخدعتهم فيها، إذ كان في ذكرها مكتفًى عن ذكر غيرها، لدلالة الكلام على ما تُرِكَ ذكرُه، يقول الله تعالى ذكره: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ يعني: هؤلاء العادلين به يوم القيامة، ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ به وبرسله، لتتم حجةُ الله عليهم بإقرارهم على أنفسهم بما يوجب عليهم عقوبتَه وأليمَ عذابه. اهـ.

فصل

وعن آيات الله تعالى يُسألون وقد سيقوا إلى النار ففُتحت أبوابها في وجوههم، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ الآية [الزمر: ٧١].

وعنها يُسألون وهم في النار، وقد لفحت وجوهَهم، وهم فيها كالحون، يسألهم سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

وتقدم الكلام على هاتين الآيتين(١).

سؤالهم

عن قذفهم القرآن بالباطل

وقولهم إنه سحر وشعر وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠-٩٣].

قال ابن جرير: الصحيح من القول في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ قول الذين زعموا أنهم عضهوه، فقال بعضهم: هو سحر. وقال بعضهم: هو شعر. وقال بعضهم: هو كهانة. وما أشبه ذلك من القول. أو

(١) انظر (صفحة ١٠٩ و ١١٤-١١٥).

عضَّوه ففرقوه بنحو ذلك من القول.

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، قال: عما كانوا يعملون في الدنيا فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم من آي كتابي الذي أنزلته إليهم، وفيما دعوناهم إليه من الإقرار به، ومن توحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان.

السؤال عن العهد

قال الله جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال ابن جرير: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾؛ يقول: وأوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضًا، والبيوع والأشربة والإجارات، وغير ذلك من العقود، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾؛ يقول: إن الله جل ثناؤه سائلٌ ناقِضَ العهد عن نقضه إياه، يقول: فلا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموه أيها الناس فتخفروه وتغدروا بمن أعطيتموه ذلك، وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوبًا، يقال في الكلام: ليُسئلنّ فلانٌ عهدَ فلان.

وقال ابن كثير: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: عنه.

وقال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد.

وقال ابن سعدي: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾؛ أي: الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. اهـ

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ [عِنْدَ إِسْتِهِ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ»(٢).

سؤال المنافقين

عن عهدهم أن لا يولوا الأدبار

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب: ١٥].

قال ابن سعدي: سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذًا بربهم؟!

سؤال المؤمنين عن أعمالهم

عن أبي بَكْرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«الزَّمَانُ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسَكَتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أَلَيْسَ ذُو

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٧٣٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣٨) وغيره.

الْحِجَّةِ؟» قلنا: بلى. قال: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسَكَتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟» قلنا: بلى. قال: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسَكَتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قلنا: بلى. قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ [وَأَعْرَاضَكُمْ] عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ». ثم قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» مرتين(١).

السؤال عن الأعمال المفروضة
وأولها الصلاة

عن حُرَيْثِ بن قَبِيصَةَ قال: قدِمتُ المدينةَ فقلت: اللـهم يَسِّرْ لي جليسًا صالحـًا. قال: فجلست إلى أبي هريرة، فقلت إني سألتُ اللهَ أنْ يرزقني جليسًا صالحًا فحدِّثني بحديثٍ سمعتَه من رسول الله ﷺ لعلّ اللهَ أنْ ينفعني به، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلَ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٦) وفي مواضع أخرى، والسياق له، ومسلم (١٦٧٩)، وغيرهما.

بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»[١].

وعن أنس بن حكيم الضَّبي قال: خاف مِن زيادٍ أو ابن زيـادٍ فأتى المدينةَ فلَقِيَ أبا هريرة، قال: فنسبني فانتسبتُ له. فقال: يا فتى، ألا أحدثك حديثًا؟ قلت: بلى رَحِـمَكَ الله. قال يونس (الراوي): وأحسبه ذكره عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ». قال: «يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَزَّ لِمَلَائِكَتِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ: انْظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئًا قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ، قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ. ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ»[٢].

(وفي لفظ): «ثُمَّ يُفْعَلُ بِسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمَفْرُوضَةِ مِثْلُ ذَلِكَ».

وقد تقدم سؤال: (**ما سلككم في سقر؟**)، فليراجع[٣].

السؤال

عن العمر والشباب والمال والعلم

عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٤١٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٦٤)، وابن ماجه (١٤٢٥) باللفظ الثاني، مصرِّحًا بسماع أبي هريرة من النبي ﷺ، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) انظر (صفحة ١١٦).

عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟»[1].

قوله ﷺ: (وعن شبابه فيم أبلاه)؛ قال الطِّيبي: فإن قلتَ: هذا داخل في الخصلة الأولى، فما وجهه؟ قلت: المراد سؤاله عن قوّته وزمانه الذي يتمكن منه على أقوى العبادة.

وقوله ﷺ: (ماذا عمل فيما علم؟)؛ قال القاري: لعل العدول عن الأسلوب للتفنن في العبارة المؤدية للمطلوب.

وقال الطِّيبي: إنما غَيَّرَ السؤالَ في الخصلة الخامسة حيث لم يقل: وعن عمله ماذا عمل به، لأنها أهم شيء وأولاه، وفيه إيذان بأن العلم مقدمة العمل، وهو لا يُعتدّ به لولا العمل.

السؤال

عن السمع والبصر والفؤاد

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال ابن سعدي: أي ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تَثَبَّتْ في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، فحقيق بالعبد الذي يَعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمَل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعِدَّ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٩٤٦).

للسؤال جوابًا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى. اهـ

قال ابن القيم[1]: فإذا كان العبد مسؤولًا ومحاسَبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقَش الحساب. اهـ

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»[2].

قوله تعالى: (تركتك ترأس وتربع)؛ قال النووي: أي تأخذ المِرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة، وهو ربعها، يقال: رَبَعْتُهم؛ أي: أخذت رُبع أموالهم، ومعناه: ألم أجعلْك رئيسًا مطاعًا.

قال: وقال القاضي بعد حكايته نحو ما ذكرته: عندي أن معناه تركتك مستريحًا لا تحتاج إلى مشقة وتعب، من قولهم: اربع على نفسك؛ أي: ارفق بها. اهـ

ومعنى قوله تعالى: (اليوم أنساك)؛ قال الترمذي: يقول: اليوم أتركك في العذاب. اهـ

وعن عَدِيّ بن حاتمٍ رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٨٤/١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٢٨)، وقال: «صحيح غريب». وصححه الألباني.

جالس في المسجد. الحديث. وفيه:

«وَلَوْ صَاعٌ، وَلَوْ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَلَوْ قَبْضَةٌ، وَلَوْ بِبَعْضِ قَبْضَةٍ، يَقِي أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ (أَوِ النَّارِ)، وَلَوْ بِتَمْرَةٍ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَاقِي اللَّهَ وَقَائِلٌ لَهُ مَا أَقُولُ لَكُمْ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالًا وَوَلَدًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ، أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْفَاقَةَ[1]، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ وَمُعْطِيكُمْ حَتَّى تَسِيرَ الظَّعِينَةُ[2] فِيمَا بَيْنَ يَثْرِبَ وَالْحِيرَةِ أَوْ أَكْثَرَ مَا يُخَافُ عَلَى مَطِيَّتِهَا السَّرَقُ»[3].

سؤال كل راع عما استرعاه الله تعالى أحَفِظ ذلك أم ضيعه؟

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ،

---

(١) أي: الحاجة والفقر.

(٢) الظَّعْن: الركوب للسفر، والظَّعِينَة: المرأة في السفر.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٢٩٥٤) وغيره، وانظر ما سيأتي (صفحة ١٥٢-١٥٣).

وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1].

(وفي رواية) قال: وأحسب النبي ﷺ قال:

«وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

قال الحافظ[2]: «والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن على حفظه، فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه.

وقال الخطابي: اشتركوا؛ أي: الإمام والرجل ومَنْ ذُكِر في التسمية؛ أي: في الوصف بالراعي، ومعانيهم مختلفة، فرعاية الإمام الأعظم حياطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل في الحكم، ورعاية الرجل أهله سياسته لأمرهم وإيصالهم حقوقهم، ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج في كل ذلك، ورعاية الخادم حفظ ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمته.

وقال الطِّيبي: في هذا الحديث أن الراعي ليس مطلوبًا لذاته، وإنما أُقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه، وهو تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه، فإنه أجملَ أولًا ثم فصَّل وأتى بحرف التنبيه مكررًا، والفاء في قوله: (ألا فكلكم) جواب شرط محذوف، وختم بما يشبه الفذلكة إشارة إلى استيفاء التفصيل.

وقال غيره: دخل في هذا العموم[3] المنفرد الذي لا زوج له ولا

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣ و٢٤٠٩ و٧١٣٨) وفي مواضع أخرى، والرواية الثانية له، ومسلم (١٨٢٩)، وغيرهما.

(٢) «الفتح» (١١٢/١٣ و١١٣).

(٣) يعني في قول النبي ﷺ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

خادم ولا ولد، فإنه يصدق عليه أنه راعٍ على جوارحه حتى يعمل المأمورات ويجتنب المنهيات؛ فعلًا ونطقًا واعتقادًا، فجوارحه وقواه وحواسه رعيته، ولا يلزم من الاتصاف بكونه راعيًا أن لا يكون مرعيًّا باعتبار آخر».

قال الحافظ[1]: «وفي هذا الحديث بيان كذب الخبر الذي افتراه بعض المتعصبين لبني أمية: قرأت في «كتاب القضاء» لأبي علي الكرابيسي: أنبأنا الشافعي عن عمه (هو محمد بن علي) قال: دخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك، فسأله عن حديث: «إن الله إذا استرعى عبدًا الخلافةَ كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات»، فقال له: هذا كذب، ثم تلا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. فقال الوليد: إن الناس ليُغروننا عن ديننا».

وقال: «وجاء في حديث أنس مثل حديث ابن عمر، فزاد في آخره: «فَأَعِدُّوا لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابًا». قالوا: وما جوابها؟ قال: «أَعْمَالُ الْبِرِّ». أخرجه ابن عَدِيّ[2]، والطبراني في «الأوسط»[3]، وسنده حسن»[4].

قال: ولابن عَدِيّ بسند صحيح عن أنس: «إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ؛ حَفِظَ ذَلِكَ أَوْ ضَيَّعَهُ».

---

(١) «الفتح» (١٣/١١٣).

(٢) «الكامل» (١/٣١٢).

(٣) (٤/٣٥٠/ ح ٣٦٠٠). وعنده: «فَأَعِدُّوا لِتِلْكَ الْـمَسَائِلِ جَوَابًا».

(٤) كذا قال رحمه الله! مع أن فيه إسماعيل بن عباد السعدي، قال الدارقطني: متروك. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال. كما في «ميزان الاعتدال»، بل و«اللسان»!

قلت: وعزاه السيوطي في «الجامع الصغير» إلى النسائي(١)، وابن حبان(٢)، وذكره بلفظ:

«إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَهُ؟ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»(٣).

سؤال الخلفاء
عما استرعاهم الله تعالى

عن أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين، فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال:

«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ». قالوا: فما تأمرنا؟ قال:

«فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»(٤).

قال النووي: «قوله ﷺ: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي)؛ أي: يَتَوَلَّوْن أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه».

---

(١) هو عنده في «الكبرى» (٥/٣٧٤/ ح ٩١٧٤). ولفظه: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ».

(٢) (١٠/٣٤٤/ ح ٤٤٩٢).

(٣) وهو في «صحيح الجامع» برقم (١٧٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢)، وغيرهما.

قال: «ومعنى هذا الحديث: إذا بويع لخليفة بعد خليفة فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها، ويحرم عليه طلبها، وسواء عقدوا للثاني عالِـمين بعقد الأول أو جاهلين، وسواء كانا في بلدين أو بلد، أو أحدهما في بلد الإمام المنفصل والآخر في غيره، هذا هو الصواب الذي عليه أصحابنا وجماهير العلماء، وقيل: تكون لمن عُقِدَتْ له في بلد الإمام. وقيل: يُقرع بينهم. وهذان فاسدان.

واتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يُعقَد لخليفتين في عصر واحد، سواء اتسعت دار الإسلام أم لا.

وقال إمام الحرمين في كتابه «الإرشاد»: قال أصحابنا: لا يجوز عقدها لشخصين. قال: وعندي أنه لا يجوز عقدها لاثنين في صقع واحد، وهذا مجمع عليه. قال: فإن بَعُدَ ما بين الإمامين وتخللت بينهما شسوع فللاحتمال فيه مجال. قال: وهو خارج من القواطع.

وحكى المازري هذا القول عن بعض المتأخرين من أهل الأصل. وأراد به إمامَ الحرمين.

وهو قول فاسد مخالف لما عليه السلف والخلف ولظواهر إطلاق الأحاديث».

سؤال القاتل فيم قتل صاحبه؟

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ[1]

(١) أي: تسيل.

دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ، قَتَلَنِي هَذَا، حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ»[1].

(وفي رواية): «يَجِيءُ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا قَتَلَنِي. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ. فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي.

وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ. فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ. فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ»[2].

قلت: هذا الوعيد فيمن قتل نفسًا واحدة، فكيف بمن قتل أنفسًا لا تحصى؟! فكيف بأولئك المسوخ من اليهود، قتلة الأنبياء، الذين شُغْلُهم الشاغل قَتْلُ عباد الله وأوليائه؟!

إنهم لا يكاد يمر بهم في هذه الأزمنة يوم إلا ويقتلون فيه أعدادًا من المسلمين، لا يفرقون بين صغير ولا كبير ولا شاب مقاتل ولا عجوز مقعد، ولا رجل ولا امرأة، ويعينون بكل قواهم على قتل ما لا يُحصى منهم!

ولله در ابن القيم إذ يقول[3]: «فلو بلغت ذنوب المسلمين عدد الحصا والرمال والتراب والأنفاس ما بلغت مبلغ قتل نبي واحد، ولا وصلت إلى

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٩٩٩ و٤٠٠٥)، وله الرواية الثانية، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٩٧)، وصححه الألباني.

(٣) «هداية الحيارى» (١/١٣٢).

قول إخوان القردة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقولهم: إنّ اللهَ بكى على الطوفان حتى رَمَدَ من البكاء، وجعلت الملائكة تعوده. وقولهم: إنه عَضّ أنامله على ذلك. وقولهم: إنه ندم على خلق البشر، وشق عليه لِـما رأى من معاصيهم وظلمهم.

وأعظم من ذلك نسبة هذا كله إلى التوراة التي أنزلها على كليمه.

فلو بلغت ذنوب المسلمين ما بلغت لكانت في جنب ذلك كتفلة في بحر».

سؤال الموءودة

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾ ؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨-٩].

قال ابن كثير: فيوم القيامة تُسأل الموءودة على أيِّ ذنبٍ قُتلتْ؟ ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذًا؟!

وقال المراغي: «﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾؛ أي: وإذا سئلت الموءودة بين يدي وائدها عن السبب الذي لأجله قُتلت، ليكون جوابها أشد وقعًا على الوائد، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جَنَتْه.

وقد افتنّ العرب في الوأد، فمنهم من كان إذا وُلدتْ له بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها، أمسكها مهانة إلى أن تقدر على الرعي، ثم ألبسها جبة صوف أو شعر وأرسلها في البادية ترعى إبله، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى

إذا كانت سداسية قال لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء، حتى إذا بلغها قال لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تسوى البئر بالأرض، ومنهم من كان يفعل ما هو أنكى وأقسى من ذلك.

فيا لله، ما أعظم هذه القسوة بقتل البريئات بغير جُرم سوى خوف الفقر أو العار! وكيف استُبدلت الرحمة بالفظاظة، والرأفة بالغلظة، بعد أن خالط الإسلام قلوبهم، ومحا وصمة هذا الخزي عنهم».

سؤال المؤمن عن ذنوبه وتقريره بها

عن صفوان بن مُحْرِزٍ المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخِذٌ بيده إذ عَرَضَ رَجُلٌ فقال: كيف سمعت رسولَ الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(١).

(وفي رواية): «وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ».

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٧٦٨) بالرواية الثانية، وغيرهما.

السؤال

عن عدم تغيير المنكر

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللَّهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ»(١).

قلت: في هذا الحديث الترهيب من ترك تغيير المنكر، ولا يُعتذر عنه في الدنيا بمقولة من لقنه الله حجته في الآخرة، إذ أن إنكار المنكر من الواجبات التي تعرض العبد للمساءلة والعقاب إلا مَنْ رحمه الله تعالى فلقنه حجته.

فائدة: مثل هذا النص فيه رد على من أخطأ في فهم قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فاحتج به لنفسه وجعله عذرًا في ترك إنكار المنكر. ولو قال: أنا مخطئ وأرجو الله أن يغفر لي، لكان خيرًا له من أن يفتح على نفسه وعلى غيره باب الاحتجاج بما هو حجة عليه لا له.

وقد جاء في الحديث عن قيس قال: قال أبو بكر بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير مواضعها: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٧) وغيره، وصححه الألباني.

«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»[1].

(وفي رواية): وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ».

(وفي رواية): عن قيس قال: صعد أبو بكر المِنبر، مِنبرَ رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدُّونها رخصة، واللهِ ما أنزل اللهُ في كتابه أشدَّ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾، واللهِ لَتَأْمُرُنّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنّ عن المنكر أو لَيَعُمَّنَّكُمُ اللهُ منه بعقاب.

وعن جرير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا»[2].

ويفهم من هذين الحديثين أنهم يُعذرون إذا كانوا لا يقدرون على أن يغيِّروا، وهذا معلوم من نصوص الشرع، فالأمر والنهي منوط بالقدرة.

ويكون معنى قول الله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾؛ أي: إذا قمتم أنتم بحق الله تعالى، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) وغيره، وصححه الألباني، والرواية الثالثة لابن جرير في «التفسير».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٩) وغيره، وحسنه الألباني.

على يد الظالم والعاصي، في حال القدرة، عندها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾.

قال ابن جرير: وأصح التأويلات عندنا بتأويل هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيها، وهو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ الزموا العملَ بطاعة الله وبما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾؛ يقول: فإنه لا يضركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله، وأديتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه، من فرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رام ظلمًا لمسلم أو معاهد ومَنْعِه منه فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غَيِّه وضلاله إذا أنتم اهتديتم وأديتم حق الله تعالى ذكره فيه.

وقال ابن كثير: «وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنًا». اهـ.

هذا، وفصل المقال في هذا المقام ما رواه أبو نَضْرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال:

«أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ».

قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد واللهِ رأينا أشياء فهِبْنا[1].

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٧)، وغيرهما، وهو في «الصحيحة» برقم (١٦٨).

سؤال المؤمنين

عن قولهم ما لا يفعلون

عن أبي الأسود قال: بعثني أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثُ مِئة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتَقْسُوَ قلوبُكم كما قست قلوبُ مَنْ كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورةً كنا نُشَبِّهُها في الطُّول والشِّدة ببراءةَ فأُنْسِيتُها، غير أنّي قد حفظتُ منها: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ، لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ».

وكنا نقرأ سورةً كنا نُشَبِّهُها بإحدى المُسَبِّحاتِ فأُنْسِيتُها، غيرَ أني حفظتُ منها: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، فَتُكْتَبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ، فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

قلت: وقد جعل الله سبحانه وتعالى كبير المقت على هذه الخصلة المشينة، كما قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن، أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحي بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٠) وغيره.

نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ.

قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام.

قال يحي: فقرأها علينا أبو سلمة.

قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي.

قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير(١).

قلت: يعني: أن أحب الأعمال إلى الله تعالى القتال في سبيله، كما في الآية التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

حديث السجلات والبطاقة

وسؤال

أتنكر من هذا شيئًا ؟

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، (وفي رواية: يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ)، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٠٩) وغيره، وصحح إسناده الألباني.

تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً. (وفي رواية: أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيُهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ)، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ.

فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ».

قال: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»[1].

قوله ﷺ: (فطاشت السجلات)؛ أي: خفت. (وثقلت البطاقة)؛ أي: رجحت. والتعبير بالمُضِيّ لتحقق وقوعه. «تحفة الأحوذي».

السؤال عن النعيم

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

قال ابن القيم: ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعًا لهم وزجرًا عن التكاثر، ونفيًا وإبطالًا لما يؤملونه من نفع

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠) بالرواية الثانية، وغيرهما، وصححه الألباني.

التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا.

قال: وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يَرَوْا دار المُكاثِرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤيةً بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها؟ وفيم صرفوها؟ اهـ.

وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في دار الدنيا، ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ اهـ.

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، وأي النعيم نُسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: التمر والماء! قال: «أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نُسأل؟ فإنما هما الأسودان، والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا! قال: «إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ»(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟!» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا». فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٦) وغيره، وحسن إسناده الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٧) وغيره، وحسنه الألباني بالذي قبله.

بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا! فقال لها رسول الله ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافًا مني.

قال: فانطلق فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ[1]، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ». فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذْق وشربوا، فلما أن شبعوا ورَوَوْا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»[2].

(وفي رواية): قال رسول الله ﷺ:

«هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ».

فصل

وقالوا في تفسير «النعيم»:

الأمن والصحة: روى ابن جرير في «تفسيره» عن مجاهد: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾؛ قال: الأمن والصحة.

وروى عن سفيان: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾؛ قال: الأمن والصحة.

---

(١) البُسْر: التمر إذا تلون ولم ينضج. وفي «عمدة القاري»: البُسْر هو المرتبة الرابعة لثمرة النخل: أولها طَلْع، ثم خِلال، ثم بَلَح، ثم بُسْر، ثم رُطَب، والخِلال بكسر الخاء المعجمة، جمع خَلالة بالفتح. قلت: والمرتبة الخامسة: التمر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨)، والترمذي (٢٣٦٩) بالرواية الثانية، وغيرهما.

وروى عن الشَّعبي قال: النعيم المسؤول عنه يوم القيامة: الأمن والصحة.

السمع والبصر وصحة البدن: روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ قال: «النعيم» صحة الأبدان والأسماع والأبصار، قال: يَسأل الله العباد فيم استعملوها؟ وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

العافية: روى ابن جرير عن أبي جعفر: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ قال: العافية.

الطعام والشراب: تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروى ابن جرير عن بُكَيْر بن عَتِيقٍ قال: رأيت سعيد بن جبير أُتِيَ بشربة عسل، فشربها وقال: هذا النعيم الذي تُسألون عنه.

فصل

في بيان أن كل ما تقدم ذكره هو من النعيم الذي يسأل عنه يوم القيامة وأن الآية تشمل كل أنواع النعيم

وذلك أنه لم يأت عن الله تعالى ولا عن رسوله ﷺ شيءٌ يقيد النعيم المراد بالآية بنوع منه دون آخر، فالآية على ظاهرها من أن العبد يُسأل عن النعيم، وهذا يشمل كل أنواع النعيم.

ومن فسره بنوع دون آخر لم يقصد تقييده بذلك النوع، وإنما هو من تفسير الشيء ببعض أجزائه بحسب المناسبة والحال.

ومما يدل على ذلك أنه تقدم قول مجاهد: الأمن والصحة. كما رواه عنه ابن جرير.

هذا، وروى عنه في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾؛ قال: عن كل شيء من لذة الدنيا.

وروى عن قتادة قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾: إن الله عز وجل سائلٌ كلَّ عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

وروى عنه أيضًا: إن الله تعالى ذكره سائلٌ كلَّ ذي نعمة فيما أنعم عليه.

السؤال

عن نعمة السمع والبصر ونعمة المال والولد

تقدم[1] في ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وتقدم قريبًا[2] قول ابن عباس رضي الله عنهما.

قلت: حقيقة السؤال عن هذه النعم (السمع والبصر والفؤاد): أن يُسأل هل أدى شكرَها؟ وهل استعملها في طاعة الله تعالى وحَفِظها أم عصى الله تعالى بها؟!

(١) انظر (صفحة ١٣١).

(٢) انظر (صفحة ١٤٩).

وعن عَدِيِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة[1]، ثم أتاه آخر فشكا إليه قَطْعَ السبيل، فقال: «يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ ؟» قلت: لم أرها وقد أُنبئت عنها. قال:

«فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ[2] تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ».

قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طَيِّءٍ[3] الذين قد سَعَّروا البلاد.

«وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى». قلت: كسرى بن هُرْمُزَ؟! قال: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ».

«وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ.

وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ:

أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى.

فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ».

قال عَدِيٌّ: سمعت النبي ﷺ يقول:

«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

---

(١) أي: الحاجة والفقر.

(٢) الظَّعْن: الركوب للسفر، والظَّعِينَة: المرأة في السفر.

(٣) جمع داعر، وهو الشاطر الخبيث المفسد، والمراد قطاع الطريق. «فتح».

قال عَدِيٌّ: فرأيت الظَّعِينَة ترتحل من الحِيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخافُ إلا الله، وكنت فيمن افتَتح كنوزَ كسرى بن هُرْمُزَ، ولئن طالت بكم حياةٌ لترَوُنَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»(١).

وفي لفظ: «فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَاقِي اللَّهَ وَقَائِلٌ لَهُ مَا أَقُولُ لَكُمْ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالًا وَوَلَدًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». الحديث.

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»(٢).

وعن أبي هريرة ـ وحده ـ رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قالوا: لا.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٣ و ٣٥٩٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٠١٦) مختصرًا، وغيرهما. واللفظ الثاني للترمذي (٢٩٥٣)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٢٨) وغيره، وقد تقدم، انظر (صفحة ١٣٢).

قال: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قالوا: لا. قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا». قال: «فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ[1]، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى». قال: «فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا». قال:

«ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ»[2].

فصل

والختم على الأفواه ونطق الجوارح المذكور في هذا الحديث جاء في قول الله عز وجل:

(١) معناه: يا فلان.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) وغيره.

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ * وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ * وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٤].

فانظر يا عبد الله، كيف شهدت عليك جوارحك التي ضيعت عمرك في السعي لراحتها في الدنيا، وبذلت جهدك في الدفاع عنها والمحافظة عليها، وتحصيل شهوتها ولو على حساب دينك، بارتكاب المنهيات والوقوع في المحرمات.

ثم وا حسرتا عليك! قد تخلت عنك وشهدت عليك.

فيا ألله ما أشد حسرتك! وما أعظم مصيبتك!

فيا من قد علم هذا وأيقن به، اجعل ندمك في الدنيا قبل الآخرة، اجعل الندم على معصية الله تعالى والغفلة عنه قبل أن تندم يوم لا ينفع الندم.

وقل لنفسك الأمّارة: تبًّا لك، ولجوارحك التي تريد لذتها بمعصية الله

تعالى: بعدًا لكن وسحقًا.

قل ذلك وأنت حر ينفعك قولك، قبل أن تقوله فلا تنال منه شيئًا، إلا الحسرة والندم، كما جاء في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال:

كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال:

«مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟» قال: «يَقُولُ: بَلَى». قال: «فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي». قال: «فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا».

قال: «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي». قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ». قال: «ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ». قال: «فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ(١)»(٢).

وعن معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّكُمْ مَدْعُوُّونَ مُفَدَّمَةً أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ(٣)، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُبِينُ عَنْ أَحَدِكُمْ لَفَخِذُهُ وَكَفُّهُ»(٤).

فصل
في شهادة الأنبياء على أممهم

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ

(١) أي: أجادل وأخاصم وأدافع. «نهاية».

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٩) وغيره.

(٣) الفِدام: ما يُشَدّ على الإبريق والكوز من خرقةٍ لتصفية الشراب الذي فيه؛ أي: أنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم، فشَبّه ذلك بالفِدام. «نهاية».

(٤) بعض حديث، أخرجه أحمد (٥/٥)، وفي مواضع أخرى، وغيره، وهو في «الصحيحة» (رقم ٢٧١٣).

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدًا وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلّغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: في الاعتذار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]، فلهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾».

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ وأحضرنا من كل جماعة شهيدَها وهو نبيُّها الذي يَشهد عليها بما أجابتْه أمته فيما أَتاهم به عن الله من الرسالة».

شهادة عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم على أمته

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه الصلاة والسلام قبل موته؛ أي: موت عيسى، وذلك في آخر الزمان إذا

نزل عليه السلام، فإن ذلك ثابت في الأحاديث؛ ينزل حَكَمًا عَدْلًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويُهْلِك اللهُ في زمانه الملل كلها إلا الإسلام. ويوم القيامة يشهد عليهم بأعمالهم؛ هل وافقت الشريعة أم خالفتها، ويشهد عليهم ببطلان ما هم عليه مما ليس هو من دين الرسل عليهم الصلاة والسلام.

شهادة خاتم الأنبياء محمد ﷺ على أمته وعلى جميع الأمم

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾؛ يعني: أمتك. أي: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع».

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قال ابن سعدي: «أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحُكم العظيم، الذي جمع أن مَنْ حَكَمَ به كاملُ العلم كامل العدل كامل الحكمة، بشهادة أزكى الخلق وهم الرسل على أممهم، مع إقرار المحكوم عليه؟!!

فهذا ـ والله ـ الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها، وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرّين له بكمال الفضل والعدل والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المبين».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اقْرَأْ عَلَيَّ». قال: آقرأُ عليك وعليك أُنزل؟!

قال: «إِنِّي أَشْتَهِي (وفي رواية: أُحِبُّ) أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

قال: فقرأت «النساء» حتى إذا بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال لي: «كُفَّ ـ أو أَمْسِكْ ـ». (وفي رواية): «حَسْبُكَ الْآنَ». فرأيت عينيه تذرفان[1].

(وفي رواية): رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل.

(وفي رواية): قال لي رسول الله ﷺ وهو على المِنبر: «اقْرَأْ عَلَيَّ».

(وفي رواية): فقرأ عليه من أول سورة «النساء».

(وفي رواية): قال: قال النبي ﷺ: «شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ـ أو مَا كُنْتُ فِيهِمْ ـ».

قال ابن بطّال: إنما بكى ﷺ عند تلاوة هذه الآية لأنه مَثّل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، والروايات كلها فيهما أو في أحدهما.

وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يَحِقُّ له طول البكاء.

قال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر أنه بكى رحمةً لأمته؛ لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا، فقد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم.

قال المراغي: «فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ، فبكى لتذكر هذا اليوم! وهل نعتبر كما اعتبر، ونستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته، ونجتهد في اجتناب البدع والتقاليد التي لم تكن في عهده، وبذا نكون أمة وسطًا لا تفريط عندها في الدين ولا إفراط، لا في الشؤون الجسمية ولا في الشؤون الروحية، أو نظل في غوايتنا تقليدًا للآباء، فنكون كما قال الكافرون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ، أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ».

قال: «فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٩)، والترمذي (٢٩٦١) مختصرًا، وابن ماجه (٤٢٨٤) واللفظ له، وغيرهم. وانظر (صفحة ٧٩).

شهادة الملائكة عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

قال ابن كثير: «﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ أي: مَلَكٌ يسوقه إلى المحشر، ومَلَكٌ يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة».

وروى ابن جرير عن يحيي بن رافع ـ مولًى لثقيف ـ قال: سمعت عثمان ابن عفان رضي الله عنه يخطب، فقرأ هذه الآية: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، قال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت.

وروى عن ابن زيد في قوله: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، قال: مَلَكٌ وُكّل به يُحصي عليه عملَه، ومَلَكٌ يسوقه إلى محشره حتى يوافي محشرَه يوم القيامة.

قال ابن سعدي: فهذا مما يجب أن يجعله العبدُ منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون!

❑❑❑❑❑

فصل

في مواعظ مختارة

لقد نطقت الغِيَر بالعبر

لقد نطقت الغِيَر بالعِبَر، ولقد خَبَر الأمر مَنْ عنده خبر، وإنما ينفع البصر ذا بَصر، فاعجبوا لمقصِّر عمرُه في قِصَر، يا مَنْ لا يُرى من توبته إلا الوعود، فإذا تاب فهو عن قريب يعود، أرَضِيتَ بفَوت الخير والسُّعود؟! أأعدَدْتَ عُدَّة لنزول الأخدود؟! أما علمت أن الجوارح من جملة الشهود؟! تالله إن حوض الموت عن قريب مورود، والله ما الزاد في الطريق بموجود، والله إن القيامة تُشَيِّب المولود، والله إن العمر محسوب معدود، والوجوه غدًا بين بيض وسود.

إلى كم هذا الصِّبا والمِرَاح؟! أأبقى الشيبُ موضعًا للمِزَاح؟! لقد أغنى الصباح عن المصباح، وقام حرب المنون من غير سلاح، اعوجّت القناة بلا قَنا ولا صفاح[1]، فعاد ذو الشّيبة بالضعف ثخين الجراح، ونطقت ألسن الفناء بالوعظ الصُّراح، وا أسفا صمَّت المسامع والمواعظ فِصَاح، لقد صاح لسان التحذير: يا صاح يا صاح، وأنّى بالفهم لسكران غير صاح، أسكرك الهوى سُكرًا لا يزاح، أوَ ما تفيق حتى يقول الموت لا بَرَاح؟!

متى يظهر عليك سيما المتقين؟! متى تترقى إلى مقام السابقين؟! كأنك بك تَذكر قولي وقد عَرِق الجبين، وخابت الآمال وعبثت الشمال باليمين،

(١) اعوجت القناة؛ أي: كبر وشاخ، بلا قنا: جمع قناة، وهي الرمح، والصفاح: جمع صفيحة، وهي هنا السيف، والمقصود: ضعف من غير حرب.

وبرِق البصر وجاء الحقُّ اليقين، ولا ينفع الانتباه حينئذ يا مسكين.

يا من يوعظ وكأنه ما يسمع، يا مشغولًا بما يفنى يَحْوي ويجمع، يا من شاب وما تاب، في أي شيء تطمع؟! يا غافلًا والموت على أَخْذه قد أزْمع، ستعرف يوم عَرْض الكتاب وسوء الحساب عينَ مَنْ تَدمع، أتراك يوم الرحيل إذا ضاق رحب السبيل ما تصنع؟! أتراك بماذا تتقي هوْل ذاك المصْرَع؟! عجبًا لك تؤثر ما يفنى وتعلم [أنّ] ما يبقى أنفع! يا من أَمَاراتُ طَرْده من وجه صَدِّه تَلْمع، لقد نادانا لسانُ حالك بدوام القبيح من أفعالك غير أنّا فيك نَطْمع.

كم تَعْذِلون وعَذْلُكم لا ينفعُ ضاعَ الحديثُ فعلِّموا من يَسْمَعُ(١)

بين أيديكم الموت وليس بمردود

إخواني، بين أيديكم الموت وليس بمردود، والرحيل إلى القبور واللحود، ثم تخرجون وحوض الندم مورود، وينصب ميزان العدل ويُرَدّ بَهْرَجُ(٢) النقود، فحينئذ يتمنى الموجود عدم الوجود، ويبكي العاصي على فوات المقصود، وتصبح وجوه المذنبين كالليالي السود، ويُقَرَّر الخاطئُ ولا وجه للجحود، فإن جحد فالجلود عليه شهود، يتمنى العَود وهيهات يَبِس العُود، ويقول: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] وباب الرجوع مسدود، وما ينتفع العاصي بقوله: ما أعود، أسمعتم ناقضي العهود؟ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]،

(١) «التبصرة»: (٤٦٢/١-٤٦٣).

(٢) أي: زَيْف وباطل.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥]، يُجْمَع الخلائق كلهم في صعيد، ويُنادَوْن فيَسْمع القريبُ والبعيد، ويَلين لذلك الهولِ الصلدُ[1] الشديد، وينطق الكتاب بما جرى لا ينقص ولا يزيد، وترى الأبدان من الهول ترتعد وتميد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ٢]، تُحمل العصاة إلى نارٍ مقامعها حديد، ولهم فيها كل يوم عذاب جديد، كل محبوس وحده فريد، ممنوع مما يشتهي ويريد، يرجون العفو والعفو منهم بعيد، قد خَرِس لسان العاصي لا يبدئ ولا يعيد، هذا وأقوام في راحة وفي عيد، حُكْمٌ نفذ في الخلق حَكَمَ به المبدئ المعيد، ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥][2].

فصل

تابع لذكر السؤال عن النعيم

هذا، ونِعَمُ الله كثيرة لا تحصى، قال جل ثناؤه:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣].

---

(١) أي: الصلب.

(٢) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٢٩).

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦-٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨-٩].

قال مجاهد: هذه نِعَمٌ من الله متظاهرةٌ يقرِّرُكَ بها كيما تَشكُر.

وقرأ الفضيل ليلة هذه الآية، فبكى، فسئل عن بكائه، فقال: هل بِتَّ ليلة شاكرًا لله أن جعل لك عينين تبصر بهما؟ هل بِتَّ ليلة شاكرًا لله أن جعل لك لسانًا تنطق به؟ وجعل يعدد من هذا الضرب(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال:

«يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/٧٠٩).

الضُّحَى»[1].

قوله: (على كل سلامى)، قال النووي[2]: أصله عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استُعْمِل في جميع عظام البدن ومفاصله.

قال ابن رجب[3]: معنى الحديث: أن تركيب هذه العظام وسلامتها من أعظم نعم الله على عبده، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه، ليكون ذلك شكرًا لهذه النعمة. اهـ.

فصل
في ذكر أول ما يسأل عنه العبد من النعيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ـ يعني: الْعَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ ـ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ؟»[4].

وفي لفظ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ أُصِحَّ لَكَ الْجِسْمَ، وَأُرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟».

قال الصنعاني[5]: وخَصّ هاتين بالأولية لأنهما أم النعم، فإن الصحة هي نعمة مفردة تأتي بكل جمع، فإن كل نعمة في ضمنها، والتروية من الماء نعمة يَقصر اللسانُ عن وصفها، فإن إيجاد الماء من

(١) أخرجه مسلم (٧٢٠).

(٢) «شرح مسلم» (٥/٢٣٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٧٠٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وغيره. واللفظ الثاني لعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (رقم ١٦٧). وصححه الألباني.

(٥) «التنوير» (٣/٦٠٥).

عجائب نعم الله، فإنه جسم رقيق لطيف سيّال، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع القَبول للطبع، مُسَخَّرٌ للتصرف، قابل للاتصال والانفصال، فيه حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شَربة ماء ومُنِع منها لبذل جميع ما في الأرض في إخراجها[1]، والعجب من الآدمي يستعظم الدينار والدرهم، ونفيس الأحجار من الجواهر، وينسى نعمة الله في هذا الشيء المبذول الذي مَنَّ الله به على عباده.

فصل
في ذكر ثلاث لا يسأل عنها العبد

عن أبي عَسيبٍ رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ليلًا فمرَّ بي فدعاني إليه فخرجت، ثم مَرَّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرَّ بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أَطْعِمْنَا بُسْرًا[2]». فجاء بعِذْقٍ[3] فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، فقال:

«لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قال: فأخذ عمر العِذْق، فضرب به الأرض حتى تناثر البُسْرُ قِبَلَ رسول

---

(١) كذا في الأصل المطبوع من «التنوير»، ويظهر أن فيه سقطًا، وقد عثرت على النص في «موعظة المؤمنين» (ص ٣١٨) تامًّا هكذا: «فلو احتاج العبد إلى شَرْبة ماء ومُنِع منها لبذل جميع خزائن الأرض ومُلْك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم لو شربها ومُنِع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض ومُلْك الدنيا في إخراجها». فالحمد لله على توفيقه.

(٢) البُسْر: التمر إذا تلون ولم ينضج. وفي «عمدة القاري»: البُسْر هو المرتبة الرابعة لثمرة النخل: أولها طَلْع، ثم خِلال، ثم بَلَح، ثم بُسْر، ثم رُطَب، والخِلال بكسر الخاء المعجمة، جمع خَلالة بالفتح. قلت: والمرتبة الخامسة: التمر.

(٣) أي: عنقود.

الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أئنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نَعَمْ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: خِرْقَةٍ كَفَّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ، أَوْ كِسْرَةٍ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ، أَوْ حُجْرٍ يَتَدَخَّلُ فِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ»(١).

فائدة: قال ابن القيم: والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أُخِذَ من حِلِّه وصُرِفَ في حقه، فيُسأل عن شكره، ونوع أُخِذَ بغير حِلِّه وصُرِفَ في غير حقه، فيُسأل عن مُستخرَجه ومَصرفه.

فصل
في ذكر حال أنعم أهل الدنيا
إذا صبغ في النار صبغة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(٢).

□□□□□

(١) أخرجه أحمد (٨١/٥)، وهو في «صحيح الترغيب» (٢٥٥/٣ رقم ٣٢٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) وغيره.

فصل

في مواعظ مختارة

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾

يا مَنْ يُدْعى إلى نجاته فلا يُـجيب، يا مَنْ قد رضي أن يخسر ويَخيب، إن أمرك طريفٌ وحالك عجيب، اذكر في زمان راحتك ساعة الوَجيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١].

وَيْحك! إنّ الحق حاضر ما يَغيب، تُحصى عليك أعمالُ الطلوع وأفعالُ المَغيب، ضاعت الرياضةُ في غير نَجيب، سِيماك تَدُلُّ وما يَخفى المُريب، اسمع لا بد لغِرْبان الفِراق من نَعيب، أنُسَاكِن الغفلةَ ولغيرنا نَعيب، يا مَنْ سِلَعه كلها مَعيب، اذكر يوم الفزع والتأنيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

لا بُدّ والله من فِراق العيش الرَّطيب، والتحافِ البِلى مَكان الطِّيب، وا عجبا للذات بعد هذا كيف تَطيب! ويحك! أَحضرْ قلبك لوَعْظِ الخطيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

تَذَكَّرْ مَنْ قد أُصيب كيف نزل به يوم عصيب! وانتبه لأَحَظِّ الحَظِّ والتَّصيب، واحترز فعليك شهيد ورقيب، إذا حلَّ الموتُ حَلَّ التركيب، وتُقَلَّبُ مُقَل القلوب في قَلْب التقليب، فتنزعج الرُّوح انزعاج الصِّرمة[1] إذا

(١) (الصِّرْمة): القطعة من الإبل أو الغنم من العشرين إلى الثلاثين والأربعين.

أَحَسَّت بذيب، فالتفت يا مُحِبَّ الهوى عن هذا الحبيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

سَتخرجُ واللهِ من هذا الوادي الرحيب، ولا ينفعك البكاء والتَّحيب، لا بُدَّ من يومٍ يتحيَّر فيه الشُّبَّان والشِّيب، ويذهل فيه الطفل للهول ويَشيب، يا مَنْ عمله كله رديءٌ فليته قد شِيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

كيف بك إذا أُحضِرْتَ في حالٍ كئيب؟ وعليك ذنوب أكثر من رَمْلٍ كثيب، والمهيمن الطالب والعظيم الحسيب، فحينئذٍ يَبْعُد عنك الأهلُ والنَّسيب، النّوْحُ أولى بك يا مغرور من التَّشْبيب، أتؤمن أم عندك تكذيب؟! أم تراك تصبر على التعذيب؟! كأنك بدمع العين ومائها قد أُذيب، اقْبَل نُصْحي وأقبل على التهذيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

يا مُطالَبًا بأعماله، يا مسؤولًا عن أفعاله، يا مكتوبًا عليه جميعُ أقواله، يا مُناقَشًا على كل أحواله، نِسيانُك لهذا أمرٌ عجيب، أتسكن إلى العافية، وتساكن المعيشة الصافية، وتظن أيْمانَ الغرور واقية؟ لا بد من سهمٍ مصيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

لو أحْسَنْتَ الخلاصَ أحْسَنْتَ، لو آمَنْتَ بالعَرْض لَتجَمَّلْتَ وتَزَيَّنْتَ، يا من قد انعجمت عليه الأمورُ لو سألتَ لتبيَّنْتَ، ويحك! أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[١].

(١) «التبصرة» (١/٩٨-٩٩).

تفكروا لماذا خلقتم؟

إخواني، تفكروا لماذا خُلِقتم فالتفكر عبادة، وامتثلوا أمر الإله فقد أمَر عبادَه، والتفتوا عن أسباب الشقاء إلى أسباب السعادة، واعلموا أنكم في نقصٍ من الأعمار لا في زيادة.

آهٍ لنفسٍ أقبلت على العدوّ وقَبِلَتْ، وبادرت ما يؤذيها من الخطايا وعَجِلَتْ، مَنْ لها إذا نوقشت على أفعالها وسُئِلَتْ، وقُرِّرَتْ بقبائحها يوم الحشر فخَجِلَتْ، وقُيِّدَتْ بقيود الندم على التفريط وكُبِّلَتْ، وشاهدتْ يوم الجزاء قُبْحَ ما كانت عَمِلَتْ[1].

ما هذه السِّنة وأنتم منتبهون؟

إخواني، ما هذه السِّنَةُ وأنتم مُنتبهون؟! وما هذه الحَيرةُ وأنتم تَنْظُرون؟! وما هذه الغفلة وأنتم حاضرون؟! وما هذه السَّكرة وأنتم صاحُون؟! وما هذا السُّكون وأنتم مُطالَبون؟! وما هذه الإقامة وأنتم راحلون؟! أما آن لأهل الرَّقدةِ أن يستيقظوا؟! أما حانَ لأبناء الغفلة أن يتعظوا؟!

واعلم أن الناس كلَّهم في هذه الدنيا على سفر، فاعمل لنفسك ما يُخلِّصها يوم البعث من سَقَر.

آن الرَّحيلُ فكن على حذرٍ ... ما قد ترى يغني عنِ الحذرِ
لا تغترِرْ باليومِ أو بغدٍ ... فلرُبَّ مَغْرورٍ على خطرِ[2]

---

(١) «التبصرة» (٢/٧٨).

(٢) «بحر الدموع» (ص ٢٨).

إلى كم تماطلون بالعمل؟!

إخواني، إلى كم تماطلون بالعمل، وتطمعون في بُلوغ الأمل، وتَغْتَرُّونَ بفُسحة المَهَل، ولا تذكرون هجوم الأجل؟! ما وَلَدْتُمْ فللتُّراب، وما بَنَيْتُم فللخراب، وما جمعتم فللذَّهاب، وما عملتم ففي كتاب مدَّخرٌ ليوم الحساب.

وأنشدوا

ولو أنَّا إذا مِتْنـا تُركـنا لكان الموتُ راحةَ كلِّ حَي

ولكنَّـا إذا مِـتْنا بُعِثْنــا ونُسْأَلُ بعدها عن كل شي

كأنك بالموت قد حل بساحتك

ابنَ آدم، كأنك بالموت قد حَلّ بساحتك، وحال بينك وبين ما تريد، وأنت في النَّزْع والكَرْب الشديد، لا والد يدفع عنك ولا وليد، ولا عدة تنجيك ولا عديد، ولا عَشيرة تحميك ولا قصر مَشِيد.

أليس ذلك نازل بك على كل حال؟! إي وعزة الكبير المتعال، فابكِ الآن حين ينفعك البكاء والاستكانة، قبل حلول الحسرة والندامة.

وأنشدوا:

يــا مَـــن يمــوت ويُســأل عمـــا يقـــول ويَفْعَــــلُ

إن المُوَكَّـــــلَ بالنفـــــو س إذا أتى لا يُمْهِــــــــلُ

والنــارُ مَــنْزِلُ مَــنْ عصــى والنـــارُ بـــئس المَـــنْزِلُ[1]

---

(١) «بستان الواعظين» (ص ١٥٦).

يا من يؤمر بما يصلحه فلا يقبل

يا نفسُ أنَّى تُؤْفَكِينا   حتى متى لا تَرْعَوينا
حتى متى لا تعقليـ   ـن وتسمعين وتبصرينا
يا نفسُ إنْ لم تَصْلُحي   فتشبَّهي بالصالحينا
وتفكري فيما أقو   لُ لعلّ رُشْدَك أن يحينا
فليأتينّ عليك ما   أفنى القرون الأولينا
أين الأولى جمعوا وكا   نوا للحوادث آمنينا
أفناهمُ الموتُ المُطِـ   ـلّ على الخلائق أجمعينا
فإذا مساكنُهم وما   جَمَعوا لقومٍ آخَرينا

يا مَنْ يُؤْمر بما يُصْلِحــه فلا يَقْبل، أمَا الشَّيْب نذيرٌ بالموت قد أقبل؟ أمَا أنتَ الذي عن أفعاله تُسْأَل؟ أمَا أنت تخلو في اللحد بما تعمل؟ ستعلـم يــوم الحســاب عنــد العتــاب مَنْ يَخْجَل، يا مبادرًا بالخطايا تَوَقَّفْ لا تَعْجَلْ(١).

يا هذا تفكر في أمرك وانقضاء عمرك

يا هذا تفكر في أمرك وانقضاء عمرك، وإخراجك من قصرك، والوزر على ظهرك، ومحاسبتك على سِرِّك وجهرك، تفكر في إثبات أعمالك وخيبة آمالك، ووقوفك وسؤالك، وربما كنت الهالك.

---

(١) «التبصرة» (١/٢٢٥).

لَذَّةُ المؤمن الفِكَر لَذَّةُ المؤمنِ العِبَر
رُبَّ لاهٍ وعمره قد تقضّى وما شَعر
صاحب المنزل الذي أنت فيه على سفر
إنّ في ذا لعِبرةً للّبيبِ إذا اعتبر

يا هذا تفكر إذا قام من القبور جميع الورى، ينفضون عن رؤوسهم الثرى، إلى حُكْم من أنشأ وبَرَا، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

إذا ذَكَرَتِ النفوسُ ذنوبَها وَجِلَتْ، وإذا عوتبت على زللها خجلت، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠][١].

□□□□□

(١) «قرة العيون المبصرة» (١٦٠/٢).

الباب السادس

في

الإعداد ليوم القيامة

الإعداد ليوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

قيل: إن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم.

قلت: فلْيَعِظ عبدٌ نفسه بما فيها، ولْيُعِدّ للقاء ربه عز وجل الإيمان وصالح الأعمال، ولْيجعل هذه الآية منه على بال، لا يغفل عنها أبدًا.

وقال ابن جرير في تفسيرها: يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس ﴿يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فتلقَوْنه فيه، أن تَرِدُوا عليه بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قِبَل لكم به، وإنه يوم مجازاةٍ بالأعمال، لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، تُوَفَّى فيه كلُّ نفس أجرَها على ما قدمت واكتسبت من سيئ وصالح، لا تُغادَر فيه صغيرةٌ ولا كبيرةٌ من خير وشر إلا أُحْضِرَتْ، فوُفِّيَتْ جزاءها بالعدل من ربها، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وكيف يُظلم من جُوزي بالإساءة مثلَها، وبالحسنة عشرَ أمثالها؟! كلا، بل عَدَل عليك أيها المسيء، وتكرم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن، فاتقى امرؤٌ ربَّه، وأَخذ منه حِذْرَه، وراقبه أن يهجُم عليه يومُه وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن

صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حَذّر فأعذَر، ووَعظ فأبلغ. اهـ

وقال سبحانه: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال سبحانه على لسان خليله إبراهيم ﷺ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

قال ابن كثير: قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ أي: لا يقي المرء من عذاب الله مالُه ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾؛ أي: ولو افتدى بمن على الأرض جميعًا، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له والتبري من الشرك وأهله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: «القلب السليم»: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: «القلب السليم»: أن يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد والحسن وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: «القلب السليم»: هو القلب الصحيح. وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر

والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة. اهـ.

وقال سبحانه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

فتخيل نفسك أيها العاصي! وقد أحاطت بك خطيئتك، واستوجبتَ عذاب الله تعالى الذي لا يحتمله أحد، ثم كانت لك الدنيا بذهبها وفضتها ولؤلؤها، ونسائها وولدانها، ومآكلها ومشاربها، وحيواناتها وأشجارها وزروعها، وجميع مراكبها، وأثاثها ورِئْيها، ثم بذلت ذلك كله ومثله معه لتفتديَ به من العذاب وتنجوَ منه، فلم يُتقبل منك ولم يغنِ عنك من الله شيئًا!

ووددْتَ لو تفتدي من هذا العذاب العظيم بأبنائك الذين تحبهم، وزوجِك التي تسكن إليها، وأخيك الذي تنتصر به في الدنيا.

ووددْتَ لو تفتدي منه بكل مَنْ تحب من قريب أو صديق، بل وبكل مَنْ في الأرض جميعًا.

ولكن، هل ينفعك هؤلاء؟ وهل يغنون عنك من عذاب الله شيئًا؟! كلا، لن ينفعوك ولن ينصروك، كما قال الله عز وجل:

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ *

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١١-١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

فيا من آمن بهذا وأيقن به! سارع إلى فداء نفسك من النار قبل فوات الأوان، وقدّم ليوم فاقتك طاعة مولاك جل جلاله، لتأمن العذاب يوم القيامة مع الآمنين.

فيا فوز من افتدى منه الآن، حيث ينفع الفداء، وندم على ما فرط في جنب الله تعالى، وتاب وأناب قبل حلول الأجل، وانقطاع العمل.

ويا ويح من أخّر التوبة، وتعلّل بلعلّ وسوف، حتى فاجأه الموت، فذهب عمره في جمع السيئات، وفاته رضا رب الأرض والسموات، وحُرِمَ الفوزَ بنعيم الجنات، بل واستوجب سخط الله تعالى وعقابه، عياذًا بك اللـهم من ذلك.

وفي «الفوائد» لابن القيم: اشترِ نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا يقبل فيه لا قليل ولا كثير، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿يَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾[الفرقان: ٢٧].

فصل

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[النبأ: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩، والإنسان: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ * يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣-٢٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى: ٤٧].

قال ابن سعدي: يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده، واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأٌ يلجأَ إليه، فيفوت ربَّه ويهرب منه، بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، وليس للعبد في ذلك اليوم نكيرٌ لِما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

قال: وهذه الآية ونحوها فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات. اهـ

وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠-١١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨].

قال ابن سعدي: يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض؛ من مآكل لذيذة ومشارب ومساكن طيبة وأشجار وأنهار وزروع وثمار ومناظر بهيجة ورياض أنيقة وأصوات شجية وصور مليحة وذهب وفضة وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار فتنة واختبارًا، ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا، قد ذهبت لذاتها وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلّاها الله لنا كأنها رَأْيُ عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغّبنا في دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترّ بزخرف الدنيا وزينتها مَنْ نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات من أي وجهٍ حصلت وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدَهم الموتُ قلق لخراب ذاته وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها ما يستعين به على ما خُلِقَ له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشقة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه و تنفيذ أوامره وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغترّ إلى ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما

بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!! اهـ

قلت: ويذكر أهل العلم عند تفسير هذه الآية ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»(1).

فصل

وقال الله سبحانه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قال ابن كثير: «هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جَناح، حدثني إبراهيم أبو زُرعة ـ وكان قد قرأ الكتاب ـ، أن الوليد ابن عبد الملك قال له: أيحاسَب الخليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت. فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟! قال: قل في

(1) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) وغيره.

أمان الله. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟! إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده في كتابه، فقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] الآية.

وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ هذا من المقدم والمؤخر: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب» انتهى كلام ابن كثير.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

قال ابن القيم: «يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أَمِنَ الصالحات التي تُنجيه أم السيئات التي توبقه.

قال قتادة: ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد».

وقال ابن سعدي: يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًّا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا

عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم واهتموا بالمقام فيها اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تَعُوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون لا تخفى عليه أعمالهم ولا تضيع لديه ولا يهملها أوجب لهم الجد والاجتهاد.

قال: وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها: فإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

قال: والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغُبنوا غَبنًا لا يمكنهم تداركه ولا يُجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده فاستحق جنات النعيم والعيش السليم ـ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ ومَنْ غفل عن ذكر الله ونسي حقوقه فشقي في الدنيا واستحق العذاب في الآخرة؟! فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [سورة التكاثر].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، قال ابن جرير: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، لو تعلمون أيها الناس علمًا يقينيًّا أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته والانتهاء إلى أمره ونهيه ورفض الدنيا إشفاقًا على أنفسكم من عقوبته. اهـ

قلت: فعلى هذا جواب «لو» محذوف، وجملة «لترون الجحيم» مستأنفة.

قال الزمخشري: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ محذوف الجواب؛ يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم عِلم الأمر اليقين؛ أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وَكَّلْتم بعلمها هممكم، لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، ولكنكم ضُلّال جَهَلة.

وقال ابن القيم: توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباءً منثورًا، وعلم أن دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعُذِّب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى الناس بتكاثره؛ إذ

أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

قال: فيا له تكاثرًا ما أقلَّه! ورزءًا ما أجلَّه! وغنًى جالبًا لكل فقر! وخيرًا تُوُصِّل به إلى كل شر! يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي، ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، تلك كلمة يقولها، فلا يُعوَّل عليها، ورجعة يسألها فلا يُجاب إليها!

وقال: فلله ما أعظمها من سورة! وأجلّها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيرًا، وأشدها ترغيبًا في الآخرة، وتزهيدًا في الدنيا، على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًّا، وبلغها عنه رسوله وحيًا. اهـ

فصل

وعن جرير رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قومٌ حفاةٌ عراةٌ مُجْتابي النِّمَارِ ـ أو العَباءِ ـ مُتَقَلِّدي السيوف، عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مُضَر، فتمعر وجهُ رسول الله ﷺ لِـما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذَّن وأقام، فصلى الظهر ثم خطب، فقال:

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، والآية التي في الحشر: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ

صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ». حتى قال: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة، كادتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عنها، بل قد عَجَزَتْ، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»(١).

وعن أنس رضي الله عنه، أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ. فقال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

قال أنس: فما فرِحنا بشيء فرَحَنا بقول النبي ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

قال أنس: فأنا أُحب النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبِّي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال:

«أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قال: فأي المؤمنين أَكْيَس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٣٩)، وغيرهما.

ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِـمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»[1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذْ بَصُرَ بجماعة، فقال:

«عَلَامَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ؟».

قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبَدَرَ بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بَلّ الثَّرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال:

«أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا»[2].

وتقدم[3] حديث عَدِيّ رضي الله عنه:

«لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[4].

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما في «الصحيحة» (٣/٣٧٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، وأحمد (٤/٢٩٤) واللفظ له، وغيرهما، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٤/٣٤٥). وقد تقدم.

(٣) انظر (صفحة ١٣٤ و١٥٢-١٥٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥/١٠١ و١١/٣٩٥ - فتح) وغيره.

«لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ[1] مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»[2].

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١]، قلت: أَيُكَرَّرُ علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خَوَاصِّ الذنوب؟ قال:

«نَعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُؤَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ».

قال الزبير: فوالله إن الأمر لشديد[3].

قال الغزالي: «ما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم! وما أشد حسراتك في ذلك اليوم، إذا وقفت بين يدي الله تعالى وأنت مفلس فقير عاجز مهين، لا تقدر على أن تَرُدَّ حقًّا أو تظهر عذرًا! فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك، وتنقل إلى خصمائك عوضًا عن حقوقهم.

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت

---

(١) التي لا قرن لها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) وغيره.

(٣) أخرجه الحاكم (٤٣٥/٢١ و٥٧٢/٤)، وأحمد (١٦٧/١)، وغيرهما، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه الترمذي (٣٢٣٦)، وقال: «حسن صحيح»، وعنده: «قال الزبير: يا رسول الله، أتكرَّر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟». وحسن إسناده الألباني.

مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات؛ من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟! وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجمَّاء من القرناء؟!» اهـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه:

«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»(١).

وعن مجاهد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمَنْكِبِي، فقال:

«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، [وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ القُبُورِ]».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك(٢).

فبادر عبدَ الله ما دام في العمر فسحة، وفي الحياة بقية، وتدبر قول الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٠٦/٤) وغيره، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذا الألباني في «تخريج اقتضاء العلم العمل» (ص ١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والزيادة للترمذي (٢٣٣٣)، وصححها الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (١١٥٧).

﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقال ابن أبي الدنيا(١): حدثنا إسحق بن إسماعيل، ثنا سفيان بن عيينة، عن جعفر بن بُرقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨].

وقال المحاسبي: «يا أخي، فإني أحذرك ونفسي مقامًا عَنَتْ فيه الوجوه، وخشعت فيه الأصوات، وذلّ فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة والخضوع لرب العالمين.

وقد جمعهم الواحد القهار، الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشارك في حكمه، جمعهم بعد طول البِلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبدًا أمره ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدنٍ تقف بين يديه، وأَعِدَّ للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، فإنه لا يُصَدِّقُ إلا الصادقين، ولا يُكَذِّبُ إلا الكاذبين.

فليكن أول ما تبدأ به من العُدَّة لذلك المقام: تقوى الله عز وجل في السر والعلانية؛ ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور». اهـ

---

(١) «محاسبة النفس» (رقم ٢).

ولابن القيم:

فيا ساهيًا في غَمرةِ الجهل والهوى صريعَ الأماني عن قريبٍ ستندمُ
أفقْ قد دنا الوقتُ الذي ليس بعدَه سوى جنةٍ أو حَرِّ نارٍ تَضَرَّمُ
وخذ من تقى الرحمن أعظم جُنَّةٍ ليومٍ به تبدو عِيانًا جهنمُ
ويُنصبُ ذاك الجِسْرُ من فوق مَتْنِها فهاوٍ ومَخْدوشٍ وناجٍ مُسَلَّمُ
ويأخذُ للمظلومِ ربُّكَ حَقَّهُ فيا بُؤْسَ عبدٍ للخلائقِ يَظْلِمُ
فلا مُجْرِمٌ يَخْشى ظُلامَةَ ذَرَّةٍ ولا محسنٌ من أجره ذاك يُهْضَمُ
وتشهدُ أعضاءُ المُسيءِ بما جَنى كذاكَ على فيه المُهَيْمنُ يَختِمُ
فيا ليتَ شِعري كيف حالُكَ عندما تطايرُ كُتْبُ العالمينَ وتُقْسَمُ
أتأخذُ باليمينِ كتابَكَ أمْ تكنْ بالأخرى وراءَ الظهر منك تُسَلَّمُ
وتقرأُ فيه كلَّ شيءٍ عَمِلْتَهُ فيُشْرِقُ منك الوجهُ أو هو يُظْلِمُ
تقولُ كتابي فاقرؤوهُ فإنّهُ يُبَشِّرُ بالفوزِ العظيمِ ويُعْلِمُ
فإنْ تكنِ الأخرى فإنك قائلٌ ألا ليتني لم أُوتَهُ فهْوَ مَغْرَمُ
فبادِرْ إذَنْ ما دام في العُمْرِ فُسْحَةٌ وعَدْلُكَ مقبولٌ وصَرْفُكَ قَيِّمُ
وجِدَّ وسارِعْ واغتنم زمنَ الصِّبا ففي زمنِ الإمكانِ تسعى وتغنمُ
وسِرْ مُسرعًا فالسيلُ خلفك مسرعٌ وهيهاتَ ما منه مَفرٌّ ومَهْزَمُ
فهنّ المنايا أيَّ وادٍ نَزِلْتَهُ عليها القُدومُ أو عليكَ سَتَقْدَمُ

ولأبي العتاهية:

أيها المُزْمِعُ الرحيلَ عنِ الدُّنْـ ـيا تَزَوَّدْ لِذاكَ من خير زادِ
لتنالنَّـــك الليــالي وشـيكًا بالمنايــا فَكُــن على اســتعدادِ
تَنَاسَــيْتَ أم نَسِــيتَ المنايــا أنَسِــيتَ الفِــراق لــلأولادِ
أنَسِــيتَ إذ أنــت فيهــا بــين ذُلٍّ ووَحشــةٍ وانفِــرادِ
أيُّ يومٍ يومُ السِّباق وإذ أنْـ ـت تُنَادَى فما تجيب المُنادي
أيُّ يومٍ يومُ الفِراقِ وإذ نفـ ـسُك تَرْقَى عن الحشا والفُؤادِ
أيُّ يومٍ يومُ الصُّراخِ وإذْ يَلْـ ـطِمْنَ حُرَّ الوجوهِ والآسَادِ[1]
باكيـات عليـكَ يَنْـدُبْنَ شَـجْوًا خافِقــاتُ القلــوب والأكبــادِ
يَتَجــاوَبْنَ بــالرَّنين ويَذْرِفْـ ـنَ دُموعًا تفيضُ فَيْضَ المَزَادِ
أيُّ يومٍ نسيت يوم التلاقي أيُّ يومٍ نسيت يوم المعادِ
أيُّ يومٍ يومُ الوقوف إلى اللـ ـهِ ويومُ الحساب والأشْهادِ
أيُّ يومٍ يومُ المَمَرِّ على النّا رِ وأهوالها العِظامِ الشدادِ
أيُّ يومٍ يومُ الخلاص من النّا رِ وهول العذاب والأصفادِ
كم وكم في القبور من أهل ملكٍ كم وكم في القبور من قُوَّادِ
كم وكم في القبور من أهل دنيا كم وكم في القبور من زُهّادِ
لو بذلتُ النّصح الصحيح لنفسي لم تذق مقلتاي طعمَ الرُّقادِ

(١) كذا في الأصل المطبوع الذي في حوزتي، ولا معنى لها هنا، ولعلها: الأجساد، أو الأجياد.

لو بذلت النّصح الصحيح لنفسي   هِمْتُ أخرى الزمان في كل وادِ
بُؤْسَ لي بُؤْسَ ميِّتًا يوم أُبْكَى   بين أهلي وحاضرِ العُوَّادِ
كيف ألهو وكيف أسلُو وأنْسى الـ   ـموتَ والموتُ رائحٌ ثم غـادِ
يا طويلَ الرُّقادِ لو كنتَ تدري   كنتَ مَيْتَ الرُّقادِ حيَّ السُّهادِ

تنبيه: اعلم أن من أعظم ما يحث على الاستعداد والتجهز للقاء الله تعالى، هو تكرار الفكر في أهوال القيامة وأخطارها، وما فيها من المواقف العصيبة، والمواطن الرهيبة، فكما أن العبد تطول عليه ساعات الغفلة في هذه الدنيا، وتتكرر عليه أنواع المعصية، وتتنوع في جذبه الشهوات، وتختلف في إضعافه الشبهات، كذلك لا بد أن يكرر على قلبه ـ وبكثرة ـ ما يعين على سلوك طريق الآخرة؛ من ذكر لله تعالى، وتلاوة لكتابه الكريم على وجه التعقل والتفهم، وفكر في الموت وما بعده، وإلا هلك مع الهالكين، وخسر مع الخاسرين.

وأَخَصُّ ما يحث على ما ذكرنا من الاستعداد: الفكرُ الصائبُ والنظرُ الثاقبُ فيما قدّمناه من أسئلة يوم القيامة، فإن ذلك بإذن الله تعالى يورث الخوف الشديد من الله تعالى أن يلاقيَه العبدُ ولا جواب له إلا ما يوجب الخسران! نسأل الله العافية.

ولْيَعلم العبد أنه إن لم يكن من أهل الاستعداد والعمل للآخرة فإنه سيندم على ذلك أشد الندم، ويتحسر عليه أعظم الحسرة، فما أن تُحمل جنازته حتى يقول: «يا ويلها! أين تذهبون بها؟».

ثم يصاحبه الندم في كل مواطنه، من ساعة دخول القبر إلى أن يستقر في النار ـ والعياذ بالله ـ، ويطلب في كل موطن الرَّدَّ إلى الدنيا لتناوش الإيمان وتحصيل صالح الأعمال ـ وا أسفا! ـ فلا يُجاب.

وقد فصلت ذلك كله في كتاب «الندامة الكبرى» في حال العصاة وحسرتهم من ساعة الموت إلى حين الاستقرار في النار، والعياذ بالله، فليطالعه مَنْ شاء، فإنه نافع إن شاء الله تعالى.

❑❑❑❑❑

فصل

في مواعظ مختارة

حاسبوا أنفسكم قبل الحساب

إخواني، حاسبوا أنفسكم قبل الحساب، وأعِدّوا للسؤال صحيح الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام، واغسلوا عن الأجرام هذه الأجرام[1]، قبل ندم النفوس في حين سياقها، قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها، قبل ذوق كأسٍ مُرَّةٍ في مذاقها، قبل أن تدور السلامة في أفلاك محاقها، قبل أن تُجْذَب النفوس إلى القبور بأطواقها، وتُفترش في اللحود أخلاق أخلاقها، وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها، وتشتد شدائد الحسرة حاسرةً عن ساقها، وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندفاقها، وتتقلب القلوب في ضَنْك ضِيق خناقها، ويطول جوع من كان في الدنيا فاكهًا[2]، وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها[3].

أيها الشابّ تدبر أمرك

أيها الشابّ تدبَّر أمرك، فإنك في زمن الربح ووقت البَذْر وإبّان الفضائل، احذر أن يخدعك العدوُّ عن نفيس هذا الجوهر فتُنفقه بكَفِّ التبذير، تالله لئن فعلت لتغرسن بذلك شجرة الندامة، فيتساقط عليك من

---

(١) الأولى جمع جِرْم: وهو الجسد، والثانية جمع جُرْم: وهو الذنب.

(٢) المراد بالفاكه هنا: الناعم العيش مع اللهو والغفلة، والله أعلم.

(٣) «التبصرة» (١/٣٣١).

كل فَنَنٍ[1] منها فَنٌّ[2] حسرة، واعرف قَدْر ما تؤمِّن به هذا الجوهر من الفضائل، واحذر من اختلاس العدو له، فصابِرْ فكأنْ قد انقضى الموسم[3].

أين عدتك لذلك الزمان؟!

إخواني، هذا نذير الموت قد غدا، يقول: الرحيل غدًا، كأنكم والله والأمر معًا، طوبى لمن سمع فوعى، كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصُّور بالصُّوَر، فخرجت تسعى من تحت المَدَر[4]، وقد رُجَّت الأرض وبُسَّت الجبال[5]، وشَخَصَت الأبصار لتلك الأهوال، وطارت الصحائف، فقلق الخائف، وشاب الصِّغَار، وبان الصَّغَار[6]، وزفرت النار، وأحاطت الأوزار، ونُصِب الصراط، وآلمت السِّيَاط، وحَضَر الحساب، وقوي العذاب، وشهد الكتاب، وتقطعت الأسباب، فكم من شيخ يقول: وا شيبتاه! وكم من كهلٍ ينادي: وا خيبتاه! وكم من شابٍّ يصيح: وا شباباه! برزت النار فأحرقت، وزفرت غضبًا فمزَّقت، وتقطعت الأفئدة وتفرَّقَت، وقامت ضوضاء الجدل، وأحاط بصاحبه العمل، والأحداق قد سالت، والأعناق قد مالت، والألوان قد حالت، والمحن قد توالت، أين عُدَّتك لذلك الزمان؟! أين تصحيح اليقين والإيمان؟! أترضى يومئذ بالخسران؟! أما تعلم أنك كما تدين تدان؟![1].

---

(١) أي: غصن.

(٢) أي: نوع.

(٣) «التبصرة» (٢/١٧٩).

(٤) المدر: قطع الطين اليابس. وقيل: اللزج المتماسك. والمقصود هنا: أنها خرجت من القبور.

(٥) أي: فُتِّتَت.

(٦) أي: الذّل.

(١) «التبصرة» (٢/١٨٢).

المبادرة! المبادرة!

المبادرةَ المبادرةَ، إنما هي أنفاسٌ لو حُبِسَتْ عنك لانقطع عنك عملُك آخر الأبد، وخروجُ نفسك آخرُ الأمدِ، وفِراقُ أهلك آخر العَدد.

وأنشدوا:

إذا ما الموت جرَّ على أناسٍ كَلاكِلَهُ أناخَ بآخرينا
فقُل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لَقينا

فاذكر حالك أيها الغافل، يوم تُقَلِّبُكَ على المغتسل يَدُ الغاسل، قد زال عِزُّك عنك، وسُلِب مالُك منك، وأُخْرِجْتَ من بين أحبابك، وجُهِّزْتَ لِتُرابك، فأُسْلِمْتَ إلى الدود، وصرت رهنًا بين اللُّحود، وبكى عليك الباكون قليلًا، ثم نَسُوك دهرًا طويلًا، فتغيرتْ منك المحاسن والحِلى[(١)]، وتَحكّم في أعضائك البِلى، وقُطِّعَتِ الأكفان، وسعى إليك الديدان، فبَلِيَ منك اللسان، وسالتِ الحَدَق[(٢)]، كأنك لم تكن قَطُّ مِمَّنْ رأى ولا نَطَق.

وأنشدوا:

فلو أنّا إذا مِتنا تُرِكْنا لكان الموتُ راحةَ كُلِّ حي
ولكنّا إذا مِتنا بُعِثنا ونُسأل بعدها عن كل شي[(١)]

---

(١) في الأصل المطبوع (مكتبة الإيمان): «المحلى»، وهو خطأ. «والحِلَى»: جمع حلية، وهي من الرجل صفته وخلقته وصورته.

(٢) الحَدَق: مفردها حَدَقة، وهي السواد المستدير وسط العين.

(١) «بستان الواعظين» (ص ١٥٦).

بادر إلى حسن العمل

يا بن آدم، بادر إلى حسن العمل، بينما أنت في فسحة ومَهَل، وتب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزَّلَل، قبل أن يقال: فلان عليل، أو مُدْنَف[1] ثقيل، فهل إلى دوائه سبيل، أو على طبيب دليل؟! فتُدْعى لك الأطباء، ويُـجْمع لك الدواء، فلا يزيدك ذلك إلا بلاء، وقد اجتمع عندك الإخوان والأحباء، والأهل والأقرباء، وكثر حولك البكاء، ثم يقال: حشرج[2]، ونفسه توشك أن تُخْرَج، وأنت تعاني الأمر العظيم، بعد اللّذة والنعيم، وعَدَلْتَ ببصرك عن القريب والحميم، وحَلّ بك القضاء، وخرجتِ الرُّوحُ من الأعضاء، ثم عُرِج بها إلى السماء، فيا لها من سعادة أو شقاء!

وأنشدوا:

فلو يكن شيءٌ سوى الموت والبِلى وتفريقُ أعضاءٍ ولحم مُبَدّد
لكنت حقيقًا يا بن آدم بالبُكا على نائبات الدهر مع كل مُسْعَد[3]

لقد خُلِقْت لأمر عظيم

يا بن آدم، لقد خُلِقْت لأمر عظيم، لو كنت تعقل لظهر قُنُوعُك، ولبَانَ خشوعك، وثارت دموعك، خوفًا من القبر ووحشته، ومن اللّحد وضغطته، ومن هول المُطَّلَع ورَوْعته، فمَهِّد لنفسك يا مسكين بينما أنت حَي، وبينما يقبل منك

(١) المُدْنف: المُدْنَف والمُدْنِف: مَن براه المرضُ حتى أشفى على الموت.

(٢) حشرج: ترددت روحه في حلقومه، وأوشكت على الخروج.

(٣) «بستان الواعظين» (ص ١٥٦-١٥٧).

شَي، قبل طَيّ الكتاب، وغَلق الباب، ونزول الحجاب، والرحيل إلى التراب[1].

يا نائمًا في قفار التسويف

يا نائمًا في قِفَار التسويف، أخطأت الطريق، صَبِيُّ غَفْلَتِك يقول: إذا شِبْتُ تُبْتُ، ولسان القواطع يناديه: «هيهات هيهات لما توعدون»، علامة الهلاك للمريض التسويف، قواعد آمالك مبنية على شَفا جُرُفٍ هار، عزيمتك للتوبة عزيمة بازي[2]، وعند عقد العهد تفر فِرار رَخَمَة[3]، تنقض عزيمة العزم بالتسويف كالتي نقضت غزلها، كلما ابيضّ الشَّيْبُ اسْوَدَّتِ الصحائف، كلما ضَعُفَتِ القوةُ قَوِي المرض، كلما قَصُر الأجل طال الأمل[4].

أيها الشابّ

أيها الشابّ، أنت في بادية ومعك جواهر نفيسة، تريد أن تَقْدَم بها لأخذ الجزاء، فاحذر أن يلقاك غَرَّارٌ من الهوى، فيشتري ما معك بأدون الثمن، فتَقْدَم البلدَ فترى الرابحين فتفقع أسفًا، وتبكي لَـهَفًا، وتقول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]! وهيهات أن يَرُدَّ الأسفُ ما سَلَف[1]!

---

(١) «بستان الواعظين» (ص ٢٠٢).

(٢) البازي والباز: ضرب من الصقور يُستخدم في الصيد.

(٣) طائر موصوف بالغدر. والمعنى: أنه كلما عزم على عَقْد عَهْدِ التوبة انهزم وغَدَر.

(٤) «روح الأرواح» (ص ١٠٣).

(١) «تنبيه النائم الغمر» (ص ١٧-١٨).

يا من صحيفته بالذنوب قد حُفَّت

يا مَنْ صحيفتُه بالذنوب قد حُفَّتْ، وموازينُه لكثرة العيوب قد خَفَّتْ، يا مستوطنًا والمزعجاتُ قد ذَفَّتْ[1]، لا تَغْتَرَّ بأغصان المُنى وإن أورقت ورَفَّتْ، فكأنك بها قد صَوَّحَتْ[2] وجفت، أما رأيت أَكُفًّا عن مطالبها قد كَفَّتْ؟ أما شاهدت عرايس الأجساد إلى الألحاد زُفَّتْ؟ أما عاينت سطور الأجسام في كتب الأرجام[3] قد أُدرِجت ولُفَّتْ؟ أما أبصرت قبور القوم في رقاع بقاع القاع قد صُفَّتْ؟ من عرف تصرف الأيام لم يُغْفِل الاستعداد، إنّ قرب المنية ليضحك من بعد الأُمْنِيَّة، ما جرى عبد في عِنان أمله إلا عثر في الطريق بأجله[4].

بادروا آجالكم

إخواني، بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكم عبرة فيمن مضى؟ أما لكم؟ ما هذا الغرور الذي قد أمالكم؟ ستَتركون على رغم آمالِكم ما لكم.

إخواني، صَدّقْتم الأملَ فكذّبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم، أما أنذركم السقم بعد الصحة، والترحة بعد الفرحة، في كل يوم يموت من أشباحكم ما يكفي في نعي أرواحكم، ويحل بعقوقكم[1] وفِنائكم ما يخبركم عن

---

(١) أسرعت وأجهزت.

(٢) يبست.

(٣) جمع رَجَم، وهو القبر.

(٤) «المدهش» (ص ١٦٣).

(١) أي: يحل بواديكم.

شتاتكم وفَنائكم، فخذوا حذركم قبل النوائب، فقد أُتيتم من كل جانب، وتذكروا سهر أهل النار في النار، واحذروا فوت دار الأبرار، وتخوفوا يوم الفصل بين الفريقين، أن يصيبكم من البين البين[(١)].

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة، مَزِّق بيد الجِدِّ أثواب الفترة، وتأهب فما تدري السير عشاء أو بكرة، واعتبر بالقرباء فالعِبرة تبعث العَبرة، وتزود لسفرة ما مثلها سفرة، واقنع باليسير فالحساب عسير؛ على الذرة، وإياك والحرام وانظر من أين الكسرة؟ قبل أن تلقى ساعة حسرة، وتُلْقى بعدها في ظلمة حفرة[(٢)].

أحضر قلبك ساعة

يا أخي، لا تُغْسَل أدناس الذُّنوب إلا بماء المدامع، لا ينجو مِنْ قَتَار[(٣)] المعصية إلا مَنْ يسارع، أحْضِرْ قلبَك ساعةً عساه بنائحة الموعظة يُراجِع، كم لي أتلو عليك صُحُفَ الموعظة وما أظُنُّك سامع؟!

يومُ المعصية ما أنحسَه مِنْ طالع، ويوم الطّاعة مختارٌ وكُلّ سعدٍ فيه طالع، اطلب ـ ويحك ـ رِفاقَ التائبين، وجدِّد رسائلك للحبيب وطالِعْ، مِصباحُ التَّقوى يدُلّ على الجادَّة، وكم في ظُلمةِ الغَفلة مِنْ قاطِع، ابكِ ويحك على مَوْتِ قلبك وعَمَى بصيرتك وكثرة الموانع، إذا لم يَعِظْكَ الدَّهْرُ والشَّيْبُ والضَّعْفُ فما أنت

---

(١) «المدهش» (ص ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) «المدهش» (ص ٢٨٩).

(٣) القتار: الدخان.

صانع؟! فبالله يا إخواني بادروا بالمتاب، وراجعوا أنفسكم قبل يوم الحساب.

ما اعتذاري وأمرُ رَبّي عَصَيْتُ حينَ تُبدي صحائِفي ما أتيتُ
ما اعتذاري إذا وقفتُ ذليلًا قد نهاني ما أَراني انتهيتُ
يا غنيًّا عَنِ العباد جميعًا وعَليمًا بكلِّ ما قد سعيتُ
ليس لي حجَّةٌ ولا ليَ عذْرٌ فاعْفُ عن زَلَّتي وما جنيتُ[1]

أيحسب الإنسان أن يترك سدى

أيها الضّال عن طريق الهدى، أمَا تسمع صوت الحادي وقد حدا؟! من لك إذا ظهر الجزاء وبَدَا؟! وربما كان فيه أن تشقى أبدًا، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

يا من تُكتب لحظاته، وتُجمع لفظاته، وتُعلم عزماته، وتُحسب عليه حركاته، إن راح أو غدَا، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ويحك! إن الرقيب حاضر، [يحفظ] عليك اللسان والناظر، وهو إلى جميع أفعالك ناظر، إنما الدنيا مراحلُ إلى المقابر، وسينقضي هذا المدى، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ما لي أراك في الذنوب تعجل؟! وإذا زُجِرْت عنها لا تَقبل؟! ويحك! انتبه لقبح ما تفعل، فإنّ الأيام في الآجال تعمل مثل عَمَلِ المُدَى، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

---

(١) «بحر الدموع» (ص ١٢٠).

سترحل عن دنياك فقيرًا، لا تملك مما جمعت نقيرًا، بلى قد صرت بالذنوب عقيرًا، بعد أن رَدّاك التلفُ رِداءَ الرّدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

كأنك بالموت قد قطع وبَتّ، وبَدّدَ الشَّمْل المجتمِع وأَشَتّ، وأَثَّر فيك الندمُ حينئذ وفَتّ، انتبه لنفسك فقد أَشْمَتَّ والله العِدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

كأنك ببساط العمر قد انطوى، وبعُود الصحة قد ذَوَى، وبسِلْك الإمهال قد قُطِع فهوى، اسمع يا من قَتَله الهوى وما وَدَى[(١)]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

تالله ما تُقال وما تُعذر، فإن كنت عاقلًا فانتبه واحذر، كم وعظك أَخْذُ غيرك وكم أعذر؟! ومَنْ أنذر قبل مجيئه فما اعتدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

فبادر نفسك واحذر قبل الفوت، وأصخِ[(٢)] للزواجر فقد رَفَعَتِ الصوت، وتنبه فطال ما قد سهوت، واعلم قطعًا ويقينًا أن الموت لا يقبل الفِدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

انهض إلى التقوى بقريحة[(١)]، وابكِ الذنوبَ بعين قريحة[(٢)]، وأزعج للجدِّ أعضاءك المستريحة، تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة لتندمنّ غدًا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[(٣)].

---

(١) أي: وما أعطى الدّيَة. وَدَى القاتلُ القتيلَ وَدْيًا ودِيَةً ووَدْيَةً: أعطى وَلِيَّهُ دِيَتَه.

(٢) أي: أَصْغ واستمِعْ.

(١) أي: بفكر ثاقب، ورأي صائب.

(٢) أي: جريحة.

(٣) «التبصرة» (١/٢٨٥-٢٨٦).

عجبًا لراحل غافل!

عجبًا لراحل عن قليل، غافل عن زاد الرحيل! لا يعتبر بأخذ الجيل، وإنما هو تأخير وتعجيل. أين النزيل؟ أُزيل. أين القويم؟ أُميل. أين المطمئن؟ اغتيل.

إن الليالي لا تَبقى على حال | والناس ما بين آمال وآجال
كيف السرور بإقبال وآخره | إذا تأملته مقلوبُ إقبال(١)

تيقظوا فالأيام دائبة، وتحفظوا فالسهام صائبة، واحذروا دنياكم فما هي مواتية، واذكروا أخراكم فها هي آتية.

أما رأيتم الدنيا فقد أبانت خَدْعها ومَكْرها، إذ أبانت مَنْ جمعها مُكْرهًا.

أين الارتياد للسلامة غدًا؟ أين الاستعداد قبل الندامة أبدًا؟

كأنكم بالمسير عن الرَّبع قد أَزِف، وبالكثير من الدمع قد نُزِف، وبالمقيم قد أُبين مما أَلِف، وبالكريم قد أُهين لـمّا تَلِف(١).

يا من يرحل عن الدنيا في كل لحظة مرحلة

يا من يرحل عن الدنيا في كل لحظة مَرْحَلة، وكتابه قد حوى حتى مقدار خَرْدَلة، وما ينتفع بنذير والنُّذُر متصلة، وما يرعوي لنصيحٍ وكم قد عذَله، ودروعه متخرقة والسهام مُرْسَلة، ونور الهدى قد يُرى وما رآه ولا تأمَّله، وهو يأمل البقاء وقد رأى مصير مَنْ أَمَّلَه، وأَجَلُه قد دنا ولكنّ أملَه قد شَغَلَه، وقد انعكف على العَيْب بعد الشَّيْب بصبابةٍ ووَلَه، ويُحْضِـر بدنَه في

(١) «مقلوب إقبال»؛ يعني: «لا بقاء».

(١) «المدهش» (ص ٣٢٦).

الصلاة فأما القلب فقد أهمله، كن كيف شئتَ فبين يديك الحساب والزلزلة، ونَعِّم جسدك فلا بد للدود أن يأكله، يا عجبا من فتورِ مؤمنٍ بالجزاء والمسألة! أيقين بالنجاة أم غرور وبَلَه؟! بادر ما بقي من العمر واستدرك أوّله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له[1].

❑❑❑❑❑

---

(١) «التبصرة» (١/٣٧٨).

خاتمة

وبعد، أخي القارئ، فقد أيقنت بالمساءلة في الآخرة، وصدّقت أن ذلك كائنٌ لا محالة، واطّلعت على ما قدّمنا، وما تضمنه من التخويف والترهيب، مما ترعد له القلوب والأفئدة، وعلمت أنك إنْ لم تستعدّ له فيا زلة القدم! ويا شدة الندم!

فهل لك ـ إذ قد علمت ذلك وأيقنت به ـ إلى أن تبادر بالخير قبل هجوم الموت؟!

وهل لك ـ إذ قد علمت ذلك وأيقنت به ـ إلى أن تقطع عنك التسويف قبل حلول الفوت؟!

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾!!

كتبه: محمد شومان

الفهـرس

الفهـــرس